الفصـل الثالث

الأمير عبدالقادر الجزائري

ونثره

الأمير عبدالقادر الجزائري ونثره

أ - مؤلفاته:

١ - ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

يعتبر مؤلف (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) من بين أهم مؤلفات الأمير عبدالقادر شهرة ولا يكاد يختلف المؤرخون والدارسون لحياته وسيرته في نسبته اليه .

الف الأمير كتابه هذا في عام ١٢٧١ – ١٨٥٥ كما يذكر الكاتب نفسه في خاتمة كتابه بقوله : " وكان الفراغ من تسويدها في يوم الإثنين ١٤ من رمضان سنة ١٢٧١ هجرية والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا[٥٣٥] " .

و الكتاب " ينبئنا عن سعة ثقافة الأمير ومواقفه من الحضارة الغربية المعاصرة ومدى تأثره بما امتازت به هذه الأخيرة من اختراعات وازدهار صناعي وعلمي[٥٣٦] "

وقد كان اختيار عبدالقادر عضوا مراسلا لمجمع الخالدين بباريس سببا لتأليف الكتاب لتكون عضويته فيه ذات دلالات علمية وفكرية فقدم هذا البحث "على نسختين احداهما باللغة العربية والأخرى مفرنسة بقلم ترجمان القنصلية في دمشق[٥٣٧] " وهو ما أشار إليه المؤلف في مقدمة كتابه يقول : " أما بعد فإنه بلغني أن علماء باريز وفقهم الله العليم العزيز كتبوا اسمي في دفاتر العلماء ، ونظموني في سلك العظماء فاهتززت لذلك فرحا ثم اغتممت ترحا ، فرحت من حيث ستر الله علي حتى نظر عباده بحسن

الظن إلي، واهتممت من كون العلماء استسمنوا ذو ورم ونفخوا في غير ضرم، ثم أشار لبعض المحبين منهم بارسال بعض الرسائل إليه فكتبت هذه العجالة للتشبه بالعلماء الأعلام ورميت سهمي بين السهام:

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم

إن التشبُّه بالكرام فلاح

وسميت هذه الر سالة" ذكرى العاقل وتنبيه الغافل[٥٣٨] "

قسم عبدالقادر كتابه إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة وأدرج تحت كل باب مجموعة من العناوين التي تخدم مشتركة الفكرة الرئيسية،[٥٣٩] وجاء مؤلفه في ثمان وخمسين ومائة ١٥٨ ص من الحجم المتوسط، وقد قام بتحقيقه والتقديم له مشكورا الدكتورممدوح حقي وقامت بطبعة دار اليقظة العربية ومكتبة الخانجي دون ذكر التاريخ وتم ايداعه بدار الكتب تحت رقم ٤٣٨٥/ ٧٦.

يتحدث الأمير في مقدمة كتابه عن مضمون رسالته " ليضع قارئه أمام الموضوع بجملة فيكون على بينة منه قبل الإقدام عليه ورسم خطته التي سار فيها رسما منسقا مرتبا"[٥٤٠] حيث جعل مقياس التفاضل بين الناس يكمن أساسا في العقل والعلم، وهما الوسيلتان الوحيدتان لإدراك الحق ولذلك وجب على العاقل في نظر الأمير " أن ينظر في القول إلى قائله، فإن كان القول حقا قبله سواء كان قائله معروفا بالحق أو بالباطل[٥٤١] " لأن الحكمة ضالة العاقل" الذي يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال"[٥٤٢] ويضرب الأمير الكثير من الأمثلة والشواهد التي تتوافق مع نظرته داعيا إلى نبذ التقليد وإطلاق حرية الفكر والعقل للتطور، والتأمل للاعتبار لمعرفة الحق بالدليل وفي ذلك يتمايز الناس مراتب فمنهم " عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره وهو

الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد . . . وقسم مهلك لنفسه ومهلك لغيره وهو الذي قلد آباءه وأجداده في ما يعتقدون ويستحسنون وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده، والأعمى لايصلح أن يقود العميان"[٥٤٣].

ويرى عبدالقادر في نهاية مقدمة مؤلفه أن هذا العقل لايمكنه أبداً إدراك الأشياء على حقيقتها إذا حجب الله – سبحانه وتعالى– عنه أنوار الهداية والتوفيق، فيغدو مثله " كالعين الباصرة لايمكنها إدراك الأشياء إلا عند طلوع النيرات كالشمس ونحوها فكذلك العقل لا يقدر على إدراك الحقائق دون خطأ إلا إذا طلعت عليه أنوار التوفيق والهداية من الله تعالى"[٥٤٤] . وهكذا يمهد الأمير لقارئه حتى يمكنه من الإلمام بجوانب الموضوع مستهديا بالعقل للوصول إلى الحقيقة المبتغاة .

أما الباب الأول (في العلوم والجهل) فقد بين فيه عبدالقادر مكانة العلم العام وفضل العلماء " العاقلين" على غيرهم، وقسم هذا العلم نفسه إلى محمود ومذموم، فالأول " ما ترتبط به مصالح الدين والدنيا كالطب والحساب، وكل علم لا يستغنى عنه في قوام أمر الدين والدنيا كأصول الصنائع والفلاحة والحياكة والسياسة والحجامة"[٥٤٥] أما العلم المذموم فيراه الأمير يؤدي حتما" إلى ضرر إما بصاحبه أو بغيره كتعليم السحر والطلسمات[٥٤٦] " تأسيا بعقيدته التي تدعو إلى اجتناب هذه الأشياء لما فيها من فساد للعقل والجسد، محاولا الإلمام والحديث عن بعض العلوم التي اشتهرت عند بعض الأمم القديمة كالبابليين والسريانيين والكلدانيين وأهل مصر ذاكرا بعض علماء الإسلام وهو في معظم سرده لهذه الرحلات العلمية لا ينسى علما دون آخر، ولا يحتقر شيئا منه فتراه يتحدث تارة عن الكيمياء وخواصها وطورا عن الصناعة وفوائدها وطورا ثالثا عن التنجيم وهو ينطلق في كل هذا من مبادئ ثابتة تخضع لمفهومه العلمي والإيماني

كرجل فكر مثالي إسلامي متحرر يدعو إلى العلم ويقدسه بل يراه الغاية من خلق الإنسان نفسه، فالعبادة الصحيحة لا تتأتى عن جهل ولذلك فإن " شرف الإنسان وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم وبها كماله[٥٤٧] " محترزا من بعض الأخطاء التي تجنح بهذا العقل أحيانا عن سواء السبيل مستدلا بما جاء به القدماء كل حسب اختصاصه في مجاله " فالمنجم مثلا باستدلاله بالنجم على الحوادث كاستدلال الطبيب بالنبض"[٥٤٨] ومن هنا راح الأمير يحذر – في معرض حديثه– من أشباه العلماء أولئك الذين يتعاطون العلم وهم ليسوا من أهله، فيكون شرهم وبلاؤهم أكبر من نفعهم لأنهم يبتغون وراء ذلك عرضاً دنيوياً زائلاً ولو على حساب الدين والأخلاق" ويدخل في هذا الوعاظ الذين يصعدون المنبر إذا لم يكن وراء كلامهم علم نافع وليس مرادهم إلا اكتساب الدينار والدراهم"[٥٤٩] .

وبهذا يكون الأمير قد وضع أمامنا إطار الصورة في هذا الباب بتركيزه على مكانة العلم والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، مبرزا أهمية العقل كوسيلة مثلى في الوصول إلى الحقيقة.

أما الباب الثالث (إثبات العلم الشرعي) يحاول فيه الأمير عبدالقادر اثبات النبوة وحاجة الإنسان إلى العلوم الشرعية والدينية التي لا تتحقق إلا عن طريق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهم الذين يحملون ويبلغون أقوامهم هذه التعاليم السماوية لأنهم الواسطة بين الخالق وعباده بتبليغهم الرسالة وأداء الأمانة وهداية البشر لما يصلحهم دينا ودنيا. فعقل الإنسان مهما بلغ من الكمال والقدرة والاستطاعة فإن له حدودا لا يتجاوزها ولا يستطيع أصلا الوصول إليها وادراك كل الظواهر" فالعقل وإن بلغ من الشرف والاطلاع على حقائق الأشياء ما بلغ، فثم علوم لا يصل إليها ولا

يهتدي إلى الإطلاع إليها إلا بتصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد إليهم بمعنى ان علوم الأنبياء زائدة على علوم العقل"[٥٥٠] ولذلك يحرص الأمير المعلم على الدعوة إلى الإيمان والتصديق بما جاء به هؤلاء الرسل من أحكام وشرائع وعلوم قد لا تدركها العقول والحواس عن طريق العلم العقلي لأن " وراء العقل طور آخر وأمور أخرى، العقل معزول عنها، ولا يصل إليها بنفسه بل بغيره"[٥٥١] . ومن هنا راح الأمير يميز بين مرتبتين أو درجتين من العلوم اللذين لابد منهما للإنسان حتى يستطيع أن يحقق غايته وتوازنه النفسي والروحي والاجتماعي ولن يحصل الكمال إلا بهما" فالعلوم التي تحل في العقل تنقسم إلى عقلية وشرعية، أما العقلية فنعني بها ما تحكم به غريزة العقل من غير تقليد وسماع . . . . . وأما العلوم الشرعية فهي المأخوذة عن الأنبياء وذلك يحصل بالتعلم لكتب الله المنزلة مثل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وفهم معانيها بعد السماع، وبها يكمل العقل ويسلم من الأمراض[٥٥٢] " ذلك أن الأمير يؤمن بأن هذه الشرائع مكونة للنقائص وزينة للعقول وطمأنينة للنفوس " فجميع أقوال الأنبياء لا تخالف العقول، ولكن فيها مالا يهتدي العقل إليه أولا، فإذا هدي إليه عرفه وأذعن له[٥٥٣] " فكان لزاما التدين والإيمان والإقرار بنبوة هؤلاء الرسل قولا وعملا " لأن المكذب للأشياء بعقله عما جاؤوا به من الأعمال والعبادات مغرور[٥٥٤] " والغرور يؤدي إلى الاستكبار والتعصب وهما سبيل الكفر وهو ماحاول الأميرأن يحذر منه بدعوة الناس – وهو يخاطب علماء أوربا– إلى التسامح والأخوة والتواضع ونبذ الكراهية لأن " الدين واحد باتفاق الأنبياء وإنما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية"[٥٥٥] .

وبذلك يتدرج الأمير في عرض افكاره في هذا الكتاب بتسلسل منطقي مراعاة لمقتضى الحال، وبالتالي جاء هذا الباب مكملا للباب الأول وهي طريقة للاستدلال

المعرفي عند علماء المسلمين أي الاعتماد على العقل والنقل معا لادراك الحقيقة لان العقل وحده قاصر في بعض المواقف والنقل أيضا لا يحقق أحيانا ما ينشده الإنسان إذا انتابته الشكوك فلا يطمئن إلى أحكامه إلا إذا آزره العقل فيها .

وكان الباب الثالث مخصصا للحديث عن (فضل الكتابة) حيث بين الأمير فيه حاجة الإنسان اليها لتقييد حوائجه وتدوين مآثره والإنسان مدني بطبعه ، ولن يتحقق له إدراك هذه الغاية والتواصل مع أخيه الإنسان إلا بإيجاد قنوات وإشارات ورموز والتي تتمثل أساساً في الكتابة ، ومن هنا راح الأمير -كعادته يتتبع مراحل نشأتها عند مختلف الأمم القديمة ليصل في النهاية إلى تحديدها في اثنتي عشرة كتابة[٥٥٦]، محاولا إيجاد الفروق بين هذه اللغات سواء من حيث الأصوات أو من حيث دلالاتها وأشكالها وما في كل لغة من لهجات ، مركزاً على منزلة الكتابة العربية من بينها راسماً خطوط انتشارها وأسماء الخطوط العربية واول من خط بها قبل مجيء الإسلام الذي رسم هذه اللغة أو الكتابة العربية بصورتها الحالية .

ويحاول الأمير أن يعلل بعض الظواهر فتراه يقرر مثلا أن السبب الذي جعل اليونان والروم يكتبون من اليسار إلى اليمين هو أن هؤلاء كانوا يدركون أن " شأن الجالس أن يستقبل الشرق لأنه مطلع النيرات ومحل ظهور النور فإذا توجه إلى المشرقي يكون الشمال على اليسار ، فإذا كان كذلك فاليسار يعطي اليمين القوة وسبب آخر وهو أن حركة الأعضاء من استمداد الكبد ، والكبد يستمد من القلب والقلب من جهة اليسار فطريق الكتابة أن يبتدأ من الجهة التي منها الاستمداد"[٥٥٧] .

كما يعرض الأمير في هذا الباب إلى قضايا هامة وأساسية سبق بها عصره متحدثا

عن التصانيف والتآليف وأنواعها حاثاً الإنسان على الابتكار والاجتهاد وعدم الالتفات لما خلفه السابقون والنظر إليه على أنه الكمال والمثال والنموذج " لأن نتائج الأفكار لا تقف عند حد وتصرفات العقول لا حد لها . . . . ولا يستبعد أن يدخر الله لبعض المتأخرين ما لم يعطه لكثير من المتقدمين"[٥٥٨] . فالعلم في نظره بحر لجي مترامي الأطراف لا تدركه الأبصار ولا تحوطه العقول ، يغرف منه المتقدم والمتأخر ولا ينفذ ولذلك ، فالخطأ الخطأ في -رأي الأمير- أن يقف المرء عند حدود ما خلفه السلف والادعاء بأنه منتهى الغاية والكمال" فقول القائل ماترك الأول للآخر شيئا خطأ والقول الصحيح هو كم ترك الأول للآخر ويقال : لا كلمة أضر بالعلم من قولهم ماترك الأول للآخر شيئا"[٥٥٩] وكأني بالأمير ينتصر بقوله هذا إلى الابتكار والتجديد شرط أن يكون مرتكزا على قواعد علمية يستطيع المؤلف من خلال تصنيفه أن يبلغ كل ما يريده إلى المتلقي بلغة وأسلوب ومنهجية تتوافق مع عصره ومجتمعه ومدركاته واستعداداته فنجاح الأمر في -راي عبدالقادر- يكمن في " اتمام الغرض الذي وضع الكتاب من أجله من غير زيادة ولا نقص ، وعدم استعمال اللفظ الغريب لا في الرموز والالغاز ، وينبغي أن يكون التصنيف مسوقاً على حسب إدراك أهل الزمن وعلى قدر ما تصل إليه عقولهم[٥٦٠] " مستعرضا بعض القضايا الأساسية الهامة كحديثه عن دلالات الألفاظ وعلاقتها بالمعاني ومدى قدرتها على إيصال المعلومات والأفكار وتفاضل الكتاب في هذا ، خاتما حديثه بعرض موجز حول نشأة ومراحل حركة التدوين والترجمة في العصور الإسلامية وخاصة العباسية منها لنقل تراث وعلوم الأمم الأخرى إلى العربية والانفتاح على كل الثقافات مشيداً بدور بعض الحكام المسلمين في هذا وخاصة الخليفة المأمون ابن الرشيد في بعث وتشجيع هذه الحركة وتحفيز العلماء إيمانا منه بدولة العلم

والإيمان وأن هذا التراث الإنساني حق للجميع كل فيه شركاء، فترجمت مؤلفات كبار الفلاسفة والعلماء " وألزم الناس قراءتها ورغبهم في تعلمها، إذ المقصود من المنع منها في صدر الإسلام هو لأجل ضبط قواعد الشريعة ورسوخ العقائد الصحيحة وقد حصل ذلك[٥٦١] "

أما الخاتمة فقد تحدث فيها عبدالقادر عن أقسام الناس واختلاف أجناسهم والفروقات المختلفة بينهم بحسب العلوم والمعارف واختلاف المذاهب مفصلا الكلام عن هذا التمايز والتباين واختصاص كل أمة بميزة تنفرد بها عن غيرها وتدل عليها كالهنود بعلومهم ومذاهبهم وحضارتهم ويكفيهم شرفا – على حد قول الأمير –أنهم أول من وضع الشطرنج مشيدا بعلمائهم وحكمائهم وتآليفهم . والأمر نفسه في عرضه لمآثر الفرس وأمجادهم وأمة اليونان وفضلهم والرومان وحنكتهم وقوتهم ليصل الأمير إلى أن كل هذه المآثر هي ثمر جهد إنساني عام، جيل يمضي وآخر يأتي ليضع لبنة في بناء هذا الصرح المعرفي الواسع لتكتمل حلقته ودرته بهذه الأمة أمة العرب التي شرفها الله سبحانه وتعالى بحمل الرسالة وهداية الإنسانية، ففضلهم على غيرهم لا يدانيه فضل، وشرفهم في ذلك بيّن، مستعرضا جوانب هامة من حياتهم وعاداتهم وخصالهم وعلومهم في الجاهلية والإسلام، معددا فضائلهم وشيمهم التي حق لهم أن يفخروا ويفاخروا بها من " البيان في الكلام والفصاحة في المنطق والوفاء بالعهد وإكرام الضيوف وعلو الهمة[٥٦٢]

"محتجا في ذلك ببعض القصص والأحداث التاريخية مشيرا باقتضاب إلى العبرانيين وأهل مصر ليؤكد أن حكمة الله اقتضت أن تختص كل أمة بفضل وميزة ولم تكتمل إلا بما عند غيرها من الأمم الاخرى ليغدو هذا الإرث إنسانيا مشتركا بين الجميع

وإن اختلفت الألسن والألوان.

ويحاول الأمير أخيرا البرهان على أن الاختلاف الحاصل بين الناس في العقول والمعارف والطباع والأمزجة مرجعها أساسا إلى موقع اختلاف بلدانهم من خط الإستواء وأحوال الشمس في الحركة حيث يجملها الأمير في ثلاثة أقسام[٥٦٣] تبرز إيمانه بالفروق الفردية والجماعية وأن الإنسان ابن بيئته تتجلى آثارها وملامحها في فكره وأخلاقه، مع الإشارة إلى أن الأمير كرر هذه الأشياء لفظا ومعنى وقد سبق له أن عرض لها في بداية مؤلفه[٥٦٤].

وخلاصة القول أن عبدالقادر في كتابه هذا أثبت لعلماء أوربا بأنه لا يقل عنهم علما ومعرفة وأنه رجل سبق عصره بهذه الأفكار الموسوعية التي آلف فيها بين موروثه الذي يعتز به وبين علوم عصره التي يلم بها ويدعي أولئك أنهم سباقون إليها . وقد حاول أن يلملم هذه المعلومات ويقدمها بطريقة توحي أن الأمير كان موضوعيا فلم يغل ولم يتطرف ولم يتعصب ولم يحتقر علما دون آخر لأنه كان يؤمن إيمانا قويا أن الوصول إلى الحق لا يكون إلا عن طريق العلم النافع بما خلفه الأولون وما يجب أن يقوم به اللاحقون لبلوغ اليقين الذي لن يتحقق إلا بالعقل والنقل وبذلك يكون عبدالقادر قد فتح باب الاجتهاد في عصره ذكرى للعاقلين وتنبيها للغافلين.

٢ - المقراض الحاد (لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد):

أما مؤلفه (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد)وهو أشبه برسالة تصدى فيها الأمير عبدالقادر للتدليل بحجج دامغة وأدلة منطقية عقلية وكونية على وجود الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون "فجاء كتابه هذا حصيلة عمر

طويل تقضى في الاستقصاء والبحث والتنقيب والتمحيص لكل ما روي ونقل ونشر عن الديانات والرسل والأنبياء والكتب السماوية ."[٥٦٥]

والكتاب يقع في أربع وخمسين ومائتي صفحة ٢٥٤ من الحجم المتوسط، قسمه الأمير إلى شبه مقدمة وثلاثة ابواب أدرج تحت كل باب مجموعة من العناوين سعى الأمير من خلالها إلى نهج طريقة تبسط للقارئ فهم مضمون حديثه، وقد حرره محمد بن عبدالله الخالدي المغربي كما هو مبين من واجهة الكتاب، ونشرته دار مكتبة الحياة في بيروت دون تاريخ .

حاول الأمير في مقدمة كتابه هذا كما فعل في" ذكرى العاقل وتنبيه الغافل " ان يحدد الوسيلة التي تمكن الإنسان ولا بديل عنها لإدراك حقائق الكون والاهتداء إلى خالقه، فبدأ بتعريف العقل هذه الملكة التي أنعم الله بها على الإنسان ليسعد في الدارين وهي "أشرف الخواص التي ميز بها الإنسان عن الحيوان " ذلك أن العقل "منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى الثمر من الشجر[٥٦٦] " فلا يكتمل أحدهما إلا بالآخر ولذلك قرن بينهما تعالى في كثير من آي الذكر الحكيم : " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر اولو الألباب[٥٦٧] " .

ثم ينتقل الأمير للحديث عن شرف النظر العقلي وتفاوت أدراك الأشياء والحقائق بين الناس وانقسامهم في ذلك بحسب استعداداتهم النفسية والعملية لاستيعاب هذه العلوم لأن العقل نفسه مراتب أربع[٥٦٨] ومن هنا تباينت منازل الناس وتفاضلوا في الأعمال تبعا لحاجة كل كل واحد منهم إلى الآخر فلا يمكن للفرد وحده أن يبدع من العدم لأنه وببساطة " لا يمكن أن يعيش منفرداً لأن الغذاء والكسوة يحتاجان إلى آلات

وتحتاج الآلات إلى حداد ونجار ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز ولهذا امتنع أن يعيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماعيات[٥٦٩] " .

وهكذا تتجلى صورة الإنسان الكامل بعمله نظرة الأمير ولذلك فهو لا يحتقر عملا أو حرفة دون أخرى بل إن العمل مهما صغر أمره أو شأنه في أعين البعض هو الدلالة الحقة على كرامة الإنسان وشرفه لأنه يمثل اليد العليا بشرط ان ينأى صاحبه عن الغرور والاستعلاء لأن الغرور في شرع عبدالقادر " نوع من الجهل فكل ما ورد في ذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور[٥٧٠] " لأنه بلا ريب مفسدة للنفس وسبيل الشيطان إليها فيزين لها أفعالها بما يوافق هواها فتقنع النفس بذلك فتردى لأن الغرور : " سكون النفس إلى مايوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد إنه على خير على شبهة فاسدة فهو مغرور[٥٧١] " ولذلك يرى عبدالقادر ان الخطر والخطر كله حين يعتقد الإنسان بغروره أنه حاز الرضى من خالقه وضمن لنفسه المخدوعة مكانا عند الله حين أحسن الله إليه بنعيم الدنيا الزائل فيذهب طيباته في حياته بدون وجه شرعي ثم يأمل في كرم الله دون أن يقدم ما يشفع له عنده في يوم تجد كل نفس ما عملت محضرا ، ولذلك راح الأمير يحذرنا من أن " نعيم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله تعالى وأن الله يحمي عبده الدنيا وهو يحبه كما يحمي احدكم مريضه الطعام والشراب وهو يحبه[٥٧٢] " ولعل مرد هذه النظرة ، ترجع إلى حياة وسيرة الأمير الصوفية التي نرى أن الزهد في الحياة والرضا بالمقسوم وكبح جماح النفس وترويضها والابتعاد عن ما حرم الله هي السبل التي توصل الإنسان إلى النجاح والفوز بنعيم الآخرة وبلوغ مرتبة الرضا .

و بعد هذه المقدمة التي اعترف فيها الأمير بأنه أرسل عنان قلمه يبدأ في الحديث عن المحور الأول الذي خصص له باباً عنونه (بإثبات الألوهية وبيان الطريق إلى معرفة

الله تعالى)[٥٧٣] وفيه استعرض عبدالقادر كثيراً من الأحكام والدلائل والبراهين التي توصل الإنسان "العاقل" إلى اليقين ومعرفة خالقه بالنظر والتأمل في آياته وإبداع خلقه في كل شيء في هذا الكون إشارة إلى وجود العليم الحكيم وكل آية تنبئ عن قدرته تعالى، فهذه الأرض بعجائبها من أنهار وبحار وجبال وحيوان ونبات لآيات لقوم يعقلون، يفسر تارة ويعلل أخرى بطرائق علمية متعرضاً إلى أدق دقائق هذه المجرات الكونية مشيراً إلى خواصها وتأثيرها على حياة الإنسان والكائنات الأخرى متتبعا جزئياتها محاولاً عرضها من كل الوجوه.[٥٧٤]

والحقيقة عند عبدالقادر كاملة فلا يمكن فهم الظاهرة الكونية فهماً صحيحاً إلا بتتبع عناصرها ولملمة جزئياتها المتباعدة لأن الإنسان يدرك الأمر في بدايته إدراكاً كاملاً وكلياً ثم ينتقل إلى فهم الجزء ويعود ثانية إلى الكل مهتدياً بالعلم والدليل العقلي، واستبعاد فكرة التنجيم والإيمان بها كوسيلة للوصول إلى الحقيقة العلمية، لأنها في نظر عبدالقادر لا تخرج عن كونها ظاهرة فلكية أكثر منها سحرية يقول الأمير: " وأما ماوراء ذلك من ادعاء الاطلاع على الغيب بالنجم، والقطع به فهو باطل، وما يتفق من إصابة المنجم على ندوره فهو اتفاقي[٥٧٥] " وبذلك تتجلى روح الأمير لأن كامل العقل العالم عنده هو الذي: " يغوص بعقله من المسببات إلى الأسباب، إلى مسبب الأسباب، غير الشمس والقمر والكواكب مسخرات بأمره سبحانه وتعالى[٥٧٦] ".

والأمير ينهج في كل هذا سبيل الاستدلال والاستشهاد بما ذكره العلماء المسلمون وغيرهم، فيعرض آراءهم ونظرياتهم في ذلك – وإن لم يشر إلى مصادره في أحيان كثيرة – مناقشاً تارة ومحللاً أخرى معتمداً على زخم روحي في تحليل بعض هذه الأحكام العلمية والفلسفية وحتى الصوفية، عارضاً لبعض أقوال هؤلاء كفخر

الدين الرازي وصدر الدين الشيرازي وإمام الحرمين وحجة الإسلام الغزالي . على أننا نلاحظ ظاهرة تكرار بعض القضايا التي جاءت في مؤلفه (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) تكراراً يكاد يكون حرفياً ومن ذلك حديثه عن اختلاف الناس تبعا لاختلاف أحوال الشمس وحركتها[٥٧٧] .

ويسعى الأمير جهده لجمع كل الأدلة التي تثبت وجود خالق الكون تعالى فلم يكتف بما ذكره بل تراه يعود إلى الإنسان نفسه- هذا العالم الصغير المعجز - فهو آية في حد ذاته (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) "فصّلت آية ٥٢" ويبدو الأمير هنا أشبه بالجراح الذي يقوم بعملية تشريح لهذا الجسد فيتحدث عن كل صغيرة وكبيرة مبينا وظيفة كل عضو فيه بكل تناسق توحي بعظمة بارئه ، فمن القلب ومكوناته والدماغ وحواسه إلى الكبد إلى خلق العلقة والمضغة فلا يغادر شيئا إلا أوسعه شرحا وتبيانا[٥٧٨] ليصل إلى مسألة حساسة ومعقدة جوهر الإشكال (الروح ' التي شغلت التفكير الإنساني ولم يهتد إلى فهم حقيقتها وكنهها وماهيتها ، لأنها من غيبيات الله ، والعقل عاجز عن إدراكها يقول تعالى : " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " الإسراء آية ٨٤ مبرزاً الاختلاف والتباين في معرفة وإدراك هذا الأمر مؤكدا على " أن الأولين والآخرين على مر الأيام والأعوام اختلفوا في الروح على زهاء ألف قول[٥٧٩] " ، مشيراً إلى اتفاق " الملليين من اليهود والنصارى والمسلمين على أن الروح حادثة إذ لا قديم عندهم إلا الله[٥٨٠] " مبينا آراء الفلاسفة واختلاف مشاربهم حول هذه المسألة كأفلاطون وأرسطو وابن سينا والغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم .

وهكذا يستمر الحديث عن ماهية الإنسان - هذا الكائن العجيب - جسدا وروحا

فلا يغفل عبدالقادر شيئا إلا وأشار إليه بالتفصيل والتحليل مجسدا في ذلك عظمة الخالق في هذا الإنسان بقواه المدركة وقواه المتحركة وينهي الأمير بابه هذا بخلاصة تثبت " أن فاعل الكل وصانع الجميع واجب الوجود بذاته . . . . . إنه حي بلا مزاج فاعل في الأشياء بلا علاج علة كل شيء صنعه ولا علة له، فهو واحد في الذات والصفات والأفعال[٥٨١] " ولن يتأتى للإنسان أن يدرك هذه النظرية التوحيدية وهذا الإقرار والخضوع للواحد الأوحد إلا بالتقرب إليه ليلج ملكوت رحمته وينال عفوه، والسبيل المؤدي إلى بلوغ هذه الغاية لن يتحقق إلا عن طريق الأنبياء والرسل هداة العقول والبشر وهو محور الحديث في الباب الموالي .

"في النبوة والرسالة " هو العنوان الذي اختاره الأمير لبابه الثاني والذي فصله إلى نقطتين، فالمحور الأول يختص باثبات الرسالة على العموم والتي لن يهتدي إليها البشر إلا عن طريق العقل سبيل الإيمان والإقرار وركيزته في ذلك العلم، ومع ذلك يبقى هذا النهج لوحده قاصرا عن إدراك الكل ولذلك كانت رحمة الله بعباده واسعة حين أرسل إليهم الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين حتى لا يكون للناس عذر ولا مبرر بعد الرسل فالرسالة من هذا المنظور ضرورة ربانية وتأكيداً لوجوده تعالى وإقراراً بوحدانيته وتنزيها له عما سواه وهي تبصرة وذكرى لكل عبدمنيب "فالعقل لايهتدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة إلا بواسطة الرسل كما لا يهتدى إلى الأدوية للصحة إلا بواسطة الأطباء فحاجة الخلق إلى الرسل كحاجتهم إلى الأطباء[٥٨٢] . "

ثم يتحدث الأمير عن علامات الرسول والنبي عارضا بعض الآراء مبينا أن الإيمان بهم والإقرار برسالتهم لايكون متوقفا بالضرورة بمشاهدتهم أو معاصرتهم "بل يثبت ذلك إلينا متواترا يفيد اليقين مثل المشاهدة . . . . حصول العلم بالتواتر ضروري لا

يحتاج إلى نظر[٥٨٣]" . ويخص الأمير بعض الأنبياء بالذكر كسيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام مستعينا في ذلك ببعض الآثار التي تواترت في عصره مبينا أوصافهما والأمم التي أرسلا إليها سارداً بعض القصص والأخبار التي تقف شاهداً على صدق رسالتيهما[٥٨٤] . ولعل القصد من وراء ذلك هو ان عبدالقادر المؤمن يريد ان يصل إلى فكرة اساسية مردها ان كل الأديان تصدر من نبع واحد وتسعى إلى غاية واحدة وهي الإقرار بوحدانية الله وعبادته والرضى بما جرت به الأقدار وهي الأمانة التي أنيطت بهؤلاء الرسل لتبليغها إلى الناس حتى يعبدوا الله حق عبادة فلأجلها خلقوا (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الطور آية ٥٤ ، مدللا على ذلك- وكعادته - بكثير من الأحاديث النبوية الشريفة وبعض المأثور ، محاولا تخريجها بين الحين والآخر ، وقد نهج الأمير هذا السبيل ليثبت على أن رسالات هؤلاء الرسل هي تكليف بإبلاغ الدعوة إلى الله ، إلا أن رسالاتهم تتناسخ وتكون رسالة الإسلام ناسخة للجميع فقد "كان شرع عيسى غير شرع موسى عليهما السلام ولا يخل ذلك بكون محمد(ص) مصدقا للتوراة والإنجيل لأن النسخ بيان وتخصيص في الأزمان ، وما زال النسخ يتعاقب في الشرائع إلى أن تم بناء قصر الرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم فانغلق باب النسخ بعده لأنه بعث لتتميم مكارم الأخلاق[٥٨٥] " .

ومن الطبيعي أن يتناول الأمير بالحديث رسالة الإسلام وصاحبها محمد عليه الصلاة والسلام باعتبار لا رسالة بعدها ولا دين (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) "آل عمران آية ٨٤" ويخصص لها حيزا كبيرا مستعرضا سيرة الرسول وصفاته وعلامات رسالته والنبوءات والإشارات السابقة الدالة

عليها سواء "ما ترادفت به الأخبار وتواترت عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكنائس من صفة وصفات أمته واسمه وعلامته وذكر الخاتم الذي بين كتفيه[٥٨٦] " .

وبما أن آية الرسول المعجزة ، فما انفك الأمير يشير إلى هذه المعجزة المتمثلة في القرآن الكريم هذا الكتاب الجامع الشامل لأحكام الدين والدنيا فيه أنباء السابقين ، قمة الفصاحة والإعجاز البياني والعلمي ، مستعرضا بإسهاب جوانب الموضوع حتى وإن كان الأمير يكرر -كما أسلفنا القول - بعض المواقف والأراء التي جاءت في مؤلفه ذكرى العاقل وهو يسعى من وراء ذلك إلى تأكيد صحة ما يذهب إليه معتبراً أن رسالات الأنبياء السابقين لمحمد (ص) محددة وتختلف باختلاف الزمان والمكان أي أن كل رسالة كانت خاصة وفي زمن خاص لمجتمع خاص أما الإسلام فهو عام وكافة للجميع لا يتحدد بتلك المقاييس الزمانية والمكانية ، ومحمد رسول الله ونبي الجميع ليصل في نهاية حديثه إلى إقرارتلك الحقيقة الأزلية الخالدة إن " من كانت حكمته عملية فموسوي ، وإن حكمته علمية فعيسوي ، وإن كانت جامعة بينهما فمحمدي فقد انختمت به النبوة بالضرورة[٥٨٧] " .

وكان الباب الثالث مخصصا للحديث عن بيان ما في شرع الإسلام من الوفاء والغدر وما يلحق ذلك من الصدق والكذب حيث راح عبدالقادر يبرز مآثر الإسلام دين الخلق الفاضل والشيم السامية وأن الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام ما بعث إلا متمماً لمكارم الأخلاق ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، معددا هذه الخلال الكريمة التي يحث عليها ديننا الحنيف ففيها سعادة الإنسان في الدارين ، ذلك ان الإسلام . "دين الصدق والوفاء والإحسان والإيثار والاقتصاد في الأمور والاشتغال بعيب النفس عن عيوب

الناس والإنصاف من نفسك وإنفاق المال لصيانة العرض والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين وإماطة الأذى عن الناس وإفشاء السلام وإكرام الجار والتواضع والتعاون على الخير والصبر[٥٨٨] " وتلك لعمري قيم لو تحلى بها الناس لما ظهر الفساد في البر والبحر ولتحقق السلام والعدل والمحبة في هذا العالم المتصارع ، وطبعا كان الأمير يصدر في هذا من تعاليم القرآن وهدي السيرة المحمدية العطرة ومن نفس جبلت على محبة الغير والتحلي بالمكارم .

ويحاول عبدالقادر ان يرجع فضائل هذه الأخلاق كلها إلى أربعة أصول أو مصادر هي : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل وباقي فروعها[٥٨٩] "

ويضرب لذلك كثيرا من القصص والأمثال من تاريخنا العربي الإسلامي المجيد التي تذهب شاهدة على ما كان يتحلى به السلف الصالح من اخلاق سجل التاريخ مواقفهم بأحرف من نور ضمنت لهم الشهرة والذيوع وما ذلك بالأمر الغريب على خير أمة أخرجت للناس .

ولا يغفل الأمير – وهو في هذا الموقف – أن يخصص حيزا كبيرا للحديث . في شيم الوفاء بالعهد وصدق الوعد وعن أخلاقيات الحرب وحسن معاملة الأسرى والالتزام بالعهود والمواثيق وكلمة الشرف ولعل مرد ذلك كون الأمير رجلاً مجاهداً مقاتلاً ذاق مرارة الأسر وذله والخيانة والغدر ، فلا ينبئك في مثل هذا إلا خبير تجرع مرارة الظلم وألم الوحشة والغربة ولكنه شهم عفو سمح كريم لأن دينه وشرعه يدعو إلى دفع السيئة بالحسنة والعفو والتسامح والترفع عن الدنيا أسوة بجده "عليه الصلاة والسلام" .

والقارئ لهذا المؤلف يجد أن الأمير أشبه بمشرع وداعية ومحببا لهذه الفضائل

بحيث تراه يبدأ حديثه في كل فقرة بأسلوب الدعوة والالتزام والأمر والنهي " ومنها أنه يلزم المسلمين . . . ومنها انه إذا نهى الإمام"[٥٩٠] دون أن يغفل دوما الارتداد إلى ذلك المعين الذي لا ينضب من موروثه الديني والحضاري يستقي منه أدلته التي تثبت أن أمته -حتى في جاهليتها- كانت أمة الوفاء وحفظ العهود، فجاهليتنا بهذا المنظور أفضل وأكرم من حضارتهم المزيفة ." فالأمة العربية أكثر وأشد جميع الأمم في ذلك، لأنهم في جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية وأخلاق مرضية وأفعال كريمة وهمم عظيمة وعقول راجحة وآراء ناجحة وشرف صميم وأنفة من كل خلق ذميم، طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون فيهم النبوءة[٥٩١] " .

وهكذا يستحضر الأمير في هذا كل ما أوتي من حجة وبينة ليثبت لظالميه أنهم ماقدروا الرجل حق قدره مستحضرا نماذج ومختارات من مفخرة العرب (الشعر) الذي يدعو ويحث ويحبب كل جميل وخلق وحسن فضيلة[٥٩٢] خاتما حديثه ببيت لبيد الشهير في مدح سيد العالمين :

وما حملت من ناقة فوق رحلها

أبر وأوفى ذمة من محمد .

وتبقى الإشارة في آخر هذا الحديث إلى أن المصنف يخلو من فهرس لموضوعات الكتاب وبالتالي يجد القارئ صعوبة في الوصول إلى مراده .

٣ - مذكرات الأمير عبدالقادر:

أما مذكرات الأمير عبدالقادر فهي عبارة عن" عمل يلتقي فيه التحرير والإملاء الشخصي للأمير مع الإنشاء الجماعي الذي تم إنجازه تحت إشراف الفقيه السيد مصطفى بن

التهامي صهر الأمير وخليفته وصديقه المقرب والمحبب إليه[٥٩٣] " ولذلك فهو شهادة صادقة لها قيمتها التار يخية " لأنها مكتوبة بأيدي شهود عيان عاشوا الأحداث وصنعوها بأيديهم واعطوها تفسيرها من داخل الواقع الذي التحم بأنفسهم ايما التحام[٥٩٤] " .

وسواء دونت هذه المذكرات بقلم الأمير أو كانت من إملائه فالمهم في هذا كما يذكر د . ابو القاسم سعد الله : " ان النموذج كان بموافقة الأمير نفسه وتحت نظره[٥٩٥] " وهو ما يؤكده مصطفى بن التهامي في قوله : "فلما قرأ مولانا أيده الله مكتوبه واستوعب معانيه كلها . كلفني- اعلى الله مقامه وأعاد علينا وعليه عوائد بره بصالح الحال والمآل - بأن أجمع ذلك بحسب ما طلب كاتب المكتوب ، فأجبته بالموافقة واثقا بإعانة المالك وسالكا صحة المسالك ومرتجيا نفعا دنيويا مآله الصالح الديني بحول الله وقوته[٥٩٦]" .

ولعل الدافع الأساسي وراء كتابة هذه المذكرات هو تلبية الأمير ونزولا عند رغبة بعض المترددين عليه "من المثقفين والمستشرقين ودعاة الماسونية طمعا في معرفة نوازعه ومواقفه إزاء الحرية والأديان والإنسان والفلسفة والمرأة ونظم الحكم ونحو ذلك من اهتمامات هذه الفئة[٥٩٧] " .

وهذا ما أشار إليه الأمير صراحة في بداية مذكراته في قوله " وبعد فإن بعض أساقفة النصارى طلب كتابا مضمنه تاريخ ما جرى بيننا وبينهم بالقطر الجزائري من مصالحة ومكافحة ببيان سبب كل واحد من الأمرين ونزيده مع ذلك التعريف بالمجاهد الإمام الأعظم الأعدل الأكرم وهذا هو الغرض الآكد منه[٥٩٨] " وقد أورد الأمير نص الرسالة كاملة لصاحبها عبدالله القبطان فلان[٥٩٩] .

أما عن تاريخ ومكان كتابة هذه السيرة فإن المخطوط كما يذكر المحققون لايوجد فيه نص صريح ينبئ عن تاريخ ومكان الشروع في تحريرها والانتهاء منها "ولكن المرجح هو أن الأمير حرر سيرته في بو PEAU أوعلى الأقل شرع في تحريرها هناك "و ذلك سنة ١٨٤٨ [٦٠٠] .

وقد أشرفت على تحقيق المخطوط وتقديمه بهذه الصورة العلمية المرتبة فرقة (الأمير عبدالقادر) للبحث العلمي المؤلفة من السادة الأساتذة الدكتور محمد الصغير بناني والدكتور محفوظ السماتي والدكتور محمد الصالح الجون وقد قام بمراجعة التحقيق في طبعته الثانية الأستاذ محمد الهادي حساني وأخرج أحاديثها الأستاذ عبدالمجيد بيرم وقامت بنشره شركة دار الأمة في إخراج جميل يحمل الغلاف صورة الأمير عبدالقادر بالألوان وتحته " مذكرات الأمير عبدالقادر " .

وقد قسمت هذه المذكرات أو الرسالة كما أشار كاتبها إلى مقدمة وسبعة فصول وخاتمة جاءت مرتبة على النحو التالي :

في المخطوط:	في الكتاب
المقدمة من ص ١ إلى ٦	المقدمة: من ص ٣٣ إلى ٤٤
الفصل الأول: من ص ٦ إلى ٢٠	الفصل الأول: من ص ٤٤ إلى ٦٣
الفصل الثاني: من ص ٢٠ إلى ٣٦	الفصل الثاني: من ص ٦٣ إلى ٨٤
الفصل الثالث: من ص ٣٦ إلى ٤٨	الفصل الثالث: من ص ٨٤ إلى ١٠٤
الفصل الرابع: من ص ٤٨ إلى ١٢٨	الفصل الرابع: من ص ١٠٤ الى ٢٠٩
الفصل الخامس: من ص ١٢٨ إلى ١٧٥	الفصل الخامس: من ص ٢٠٩ الى ٢٥٨

الفصل السادس: من ص ١٧٥ إلى ٢٠٠ الفصل السادس: من ص ٢٥٨ الى ٢٨٤
الفصل السابع: من ص ٢٠٠ إلى ٢٢٢ الفصل السابع: من ص ٢٨٤ الى ٣٠٧
الخاتمة: من ص ٢٢٢ إلى ٢٢٦ الخاتمة: من ص ٣٠٨ إلى ٣١٥

أمافارق الصفحات فقد كانت بمثابة تصدير بقلم الدكتورأبو القاسم سعد الله وتقديم ، للدكتور عبدالمجيد مزيان وزير الثقافة سابقا إلى جانب مقدمة المحققين ونماذج من المخطوط مع ذكر أهم المراجع المتعددة في إنجاز هذا العمل ، وفي نهاية هذا الكتاب فهرس للأماكن وآخر للقبائل والشعوب وأخيرا فهرس الموضوعات وقد أخذت هذه مايقارب من اثنتين وستين صفحة . وهكذا بلغ عدد صفحات الكتاب ٢٩٢ صفحة من الحجم العادي .

ففي مقدمة الكتاب سرد الأمير الأسباب والدوافع التي كانت وراء انجاز هذا العمل مستعرضا المبررات الشرعية والمنهجية مؤكدا على أن ما قام به " أن لم يكن فيه نفع ديني أو دنيوي فلا ضرر فيه من جانبها ، فإن الكلام المحتوي على حكمة أو مثل أو حكاية يقوي النفس وينشطها بالتشويق اليما وراء ذلك لا سيما إذا ذكر ذلك في المقدمة التي تقدم امام المقصود للانتفاع بها فيه للارتباط لها به[٦٠١] " وبذلك يدرك الأمير أن حسن الاستهلال محبب إلى النفس ومثيرإلى الشوق والبحث فيدفعها حتما إلى الانكباب على العمل وتقبله دون كلل أو ملل وهو ما جسده الأمير فعلا في بداية حديثه حين ينقل قارئه أو بالأحرى سائله من لوحة إلى اخرى مستهديا بأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبعض صحابته وأقوال بعض العلماء والفقهاء والفلاسفة مستعرضا بعضا من القصص التراثي للتدليل على أحكامه وتدعيم حججه بالعبرة تارة وبالتذكير اخرى متحدثا عن النبوة وحاجة الإنسان إليها لهدايته إلى سواء

السبيل مؤكدا على وجوب الوفاء بالعهد والحكم بالعدل لأنه ذاق مرارة الخيانة والظلم فلا يحدثك مثل الأمير صدقا إلا من عاش هذه المآسي وشرب كأس مرارتها حتى الثمالة، وتكاد هذه المواقف تتكرر عنده في كل مؤلفاته ولا يزال الأمير يرددها ولا يمل تكرارها كلما سنحت الفرصة لذلك ليشعر فرنسا بفداحة جرمها فقد انبرى بالقلم يذود به عن حياض الدين وشرف العرب وشمائل الإسلام ينشد الإنسان الكامل الذي يراه متجليا في" تبليغه الهدي والعلم فيحفظه فيحيا قلبه ويعمل ويعلمه غيره فينتفع ينفع[٦٠٢] " وخير الناس من ادرك هذه الحقيقة فوعاها.

أما الفصل الأول ففي بيان نسب الأمير عبدالقادر ونشأته ومراحل تعلمه وتعداد أسماء شيوخه والإشادة بتلك الأرومة الكريمة التي ينحدر منهاو السبل التي ملكها في بلوغه " الذروة الشامخة وشام المرتبة الباذخة[٦٠٣] " مبينا ومفتخرا بمذهبه المالكي وتبحره في العلوم الدينية والدنيوية مما جعله يتبوأ مكانا عليا وسط قومه وبين أترابه حتى " انتهت إليه رئاسة الشورى وسياسة القربى من الأقارب والأباعد واستشرفت لمحبته الأرجاء والأقطار . . . ولو تتبعنا ما وصف به هو ووالده وسلفه وما عد من ثناء الناس في القديم والحديث لملأ الأرض وفات الطول والعرض وضاقت عن فحواه الطروس وتهلهلت بالعجز عن العبدالجروس[٦٠٤] " .

أما الفصل الثاني وهو تكملة للحديث عن ذلك النسب والحسب الشريف الذي تنحدر منه أسرة الأمير والذي يرجع إلى سيد الخلق محمد (ص) مفصلا الحديث عن نسب الرسول وأجداده وقبيلة قريش " فنسبه (ص) أشرف الأنساب وسببه أفضل الأسباب وبيته في قريش أوسط بيوتها المرامة وأعرق معدنها الكريمة، فشماؤهم في المجد الصميم وشركائهم إلى ذلك المقام الكريم فسؤدد البطحاء عليهم مقصور والعيون إليهم أياً سلكوا

أمور[٦٠٥] " . كما يتحدث الأمير في هذا الفصل عن العرب العاربة والمستعربة من الشعوب العدنانية والقبائل القحطانية من البطون والأفخاذ منتصرا لقومه وجنسه العربي القح المجيد مستشهدا على هذا الشرف وهذا الامتياز بما صدر عن رسول الله (ص) من أحاديث شريفة في فضل العرب على غيرهم بل إنه عليه السلام جعل محبة العرب من محبته نفسه" فمن أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض فببغضي أبغضهم[٦٠٦] " بل إنه كره العرب وبغضهم آية من آيات المنافق في قوله (ص) "لا يبغض العرب "إلا منافق[٦٠٧] " لما للعرب من فضل في حمل الرسالة وهداية الناس فالقرآن نزل بلسانهم والرسول منهم والكعبة في بلدهم فأي فضل يسمو على هذا، مدللا على هذه الحقائق في تأكيد شرف هذه السلالة بكثير من المآثر وجلائل الأعمال والأخلاق التي صدرت عن السلف الصالح فبوأت هذه الأمة تلك المكانة التي كانت تستأثر بها دون الأمم الأخرى .

وكان الفصل الثالث مخصصا للحديث عن النبي والرسول ومعنى النبوة والرسالة وما يتعلق بذلك من أحكام وشروط، ومن تفضيل بعض الرسل عن بعض وتخصيص كل رسول بآية أو معجزة ويذهب في تفسير ذلك والاستدلال على أقواله بما ورد في آي الذكر الحكيم شارحا تارة ومفسراً أخرى مشفعاً كلامه ببعض ما تواتر عن الرسول (ص) في هذا الموضوع وبعض أقوال العلماء والمفسرين والفقهاء كالسيوطي وابن حجر الهيثمي، ويكاد حديث الأمير يتكرر كل مرة عن موضوع النبوة فقد سبق له أن عرض هذا في مؤلفه ذكر العاقل، والمقراض الحاد، ويحاول الأمير أن يربط دائما قارئه بموضوعه حين يستعرض جملة من الأحداث والقصص التي لها علاقة بما هو مقبل عليه إدراكا من الأمير بأن النفس تميل دوما إلى القص والسرد عبرة وتسلية وإن كان الأمير

يسميها في مذكراته تارة بالحكاية وأخرى بالطريفة واللطيفة والفائدة وفيها يتبع الموضوع بكل دقائقه كما فعل مثلا حين تحدث عن بعض الأنبياء والرسل كهود وصالح ولوط وداوود وغيرهم عليهم صلوات الله[٦٠٨] .

و يكاد يكون الفصل الرابع تتمة أو تكملة للحديث الذي بدأه الأمير في فصله الأول الذي خصصه لذكر نسبه وسيرته وشيوخه وفيه يعيد استحضار تلك المحن والمآسي التي ألمت بعبدالقادر وما تعرض له من الأهوال والشدائد في سبيل مبادئه وعقيدته درءا عن حياض الدين وإعلاء لكلمة الجهاد التي أفنى من أجلها زهرة شبابه ، واصفاً ما جرى بينه وبين أعدائه من منازلات ووقائع كانت له الغلبة فيها تارة ، ولفرنسا وخصومه الغلبة تارة أخرى ، واصفاً ذلك بكل صدق وأمانة إيمانا من الأمير بأن الزمن لا يبقي على حدثانه وأن الله يداول أيامه بين عباده .

وينتقل الأمير للحديث عن رحلاته وسياحته العلمية والدينية فلا يدع أمرا إلا وعرض له بالوصف والتعليق مسجلا كل لحظاتها وما استشعره عند كل موقف ، فأنصت إليه مثلاً وهو يصف بكل دقة ويرسم إطلالة الركب على مكة مهد الرسالة يقول : " إلى أن دخلنا بلاد الله الحرام الفجر بمقدار ساعة وعاينا قبلة كعبة صلاتنا وابتدأنا بسند طواف القدوم باستلام الركن اليمني والحجر الأسود والناس بين داع وقارئ وملب وخاشع وقانت وساجد وراكع خاشع وخاضع وجالس ينظر لتلك وساع بين الصفا والمروة بهرولة الرمل المتعاهد[٦٠٩] " ولم يغفل الأمير كعادته في هذا الفصل أن يستشهد بما يتأتى له من القول المأثور نثراً أو شعراً تأكيداً لمذهبه في الحرب والسلام والوفاء بالعهد وشرف الكلمة تأسياً بدينه الحنيف الذي يحث على ذلك ورداً على أولئك الذين اتهموه بالخيانة والخداع " ويحسبون الخدعة علينا وحاشا الله أن نخدع

وشرعنا لا يأذن لنا فيه[٦١٠] " .

كما نجد ذكراً لمعاهدات الأمير مع فرنسا في هذا الفصل بشروطها وبنودها وذكراً لانتصارات الأمير وهزائمه بعد أن ولاه جموع المسلمين إمارة البلاد والعباد والجهاد بعد دخول الجيوش الغازية أرض الجزائر وأغلب هذه الوقائع والأحداث نجدها أيضا مفصلة في مؤلف نجله الأمير محمد "تحفة الزائر" . وهكذا يعيد الأمير كل مرة إلى الارتداد إلى مفاخر قومه إلى ذلك الإرث العظيم يفاخر به خصومه ويغالب به أمجادهم ، فهو بالنسبة له معين لا ينضب وحوادث تقف شاهدة على عظمة أمته التي وهنت وضعفت ولكن الأمر عند الأمير لا يعدو أن يكون سحابة صيف وهذا ما حاول الأمير أن يؤكده في الفصل الخامس من هذه المذكرات بحيث نجده قد حشد كماً هائلاً من الأخبار والحوادث التاريخية التي التي تبرز مآثر وأيام العرب في الزمن الأول وسجاياهم وخصالهم في الحرب والسلم " ليعلم الواقف على هذا التأليف أن شرف العرب أمر شهير النواصي يعترف به المنصف والغريب والمعاند والقاصي[٦١١] " ولذلك راح الأمير يذكر ويعدد المناقب التاريخية لتأصيل هذه الحقائق فيتحدث عن فضائل مكة وتاريخ بنائها[٦١٢] وما جرى فيها من أحداث كتدفق ماء زمزم ونزول العمالقة وانهدام البيت وقصة إعادة بنائه وزوال المماليك بظهور الإسلام والنبوءات المشيرة به إلى جانب بعض القصص التي رأى الأمير أن لها علاقة بهذا المجد التليد مستحضراً في كل هذا ميزة العرب " شعرهم " يدبج به أحاديثه .

فالأمير عبدالقادر إنساني في التوجه لم يكن متزمتاً ولا متطرفاً صاحب فكر منفتح وروح متسامحة يؤمن بحق الإنسان في الحياة مهما كان جنسه أو لونه لذلك آثر أن يتحدث في الفصل السادس من مذكراته عن الروم القيصرية فوفاها حقها بكل موضوعية وحدد مناقبها وإسهاماتها في بناء صرح الحضارة الإنسانية مثنياً على

إخلاص الحواريين لنبيهم عيسى عليه السلام معدداً فضائل النصارى من خلال آي القرآن الكريم "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وإنهم لا يستكبرون "المائدة آية ٨٢ . وقوله: " وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين " المائدة آية ٨٣ ، مستشهدا في المقام نفسه على مدى تحبيب الإنجيل المسلمين للنصارى ويضرب لذلك مثلا في قصة النجاشي وما جرى لأوائل المهاجرين للحبشة حين خاطبهم بقوله " ما تجاوز عيسى ما قلت بمقدار هذا العود . . . . اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي آمنون به من سبكم عزم، من سبكم عزم، من سبكم عزم، فما أحب أن جبل دبرا من ذهب واني آذيت أحداً منكم[٦١٣] " مدليا بشهادة على كرم أخلاقهم وطهر سرائرهم " ولقد سايرناهم سنين واختبرنا أحوالهم فيها بكثير من الخصال الجميلة لا سيما وصفه تعالى لهم بأنهم لا يستكبرون، فإن عدم الكبر مستمر بينهم إلى الآن[٦١٤] " ولعل مرد نبل أخلاق الأمير وإقراره بهذا يعود أساساً إلى صفاء قلبه ودماثة خلقه فهو يرى الكل بعين الطيبة وجميل الخلق على أن معاشرته إياهم في حربه وسجنه ومجادلاته تبرز ربما هذه الحقيقة التي تنأى عن التملق. ذلك أن الأمير كما هو معروف لا يخاف في الحق لومة لائم " نعم شاهدنا ممن رأينا من كثير لهم الأدب والاعتراف والثبات والإنصاف ومعرفة الأفضل والمتفضل ومنازل الرجال وإعطائهم حقهم من تعظيم وتوقير وما يبلغنا عن مجالسهم في محادثتهم عنا إلا ما يقر العين[٦١٥] " وتلك هي روح التسامح والعفو والصفح برغم كل المآسي التي لحقته من بعض هؤلاء وكعادة الأمير فهو ينتقل في كل فصل من موضوع إلى آخر ليوفيه حقه فعرض بالحديث للمسيح وعودته إلى الأرض

كما عدد فضائل مريم العذراء طارقاً كل ما له علاقة بالنصارى وكأنه يثبت لمعاصريه منهم على أنه يعلم من تاريخهم وسيرهم وأخبارهم ما قد يجهله هؤلاء أنفسهم فيقيم عليهم الحجة والبينة ليعلموا أي رجل هو عبدالقادر العربي المسلم .

أما الفصل السابع فأفرده الأمير لما اجتمع نسبه من هذه الأجناس وغيرها كالروم والعرب والنبط فما هذه الأجناس إلا أصلاً واحداً ثم تفرقت بهم السبل بعد ذلك لتنفرد كل أمة بميزة وخاصية تدل عليها بين غيرها، وينطلق الأمير في ذلك من كثير من الأحكام والأدلة العقلية والتاريخية مؤكداً أن هذه الخصومات والعداوات لا مبرر لها أصلاً والأصل هو التراحم والتواصل، ومنه فإنه لا يمكن لأحد أن ينكر هذه الصلات والوشائج التي تربط بني الإنسان جميعا، ويضرب لذلك أمثلة فمنبتهم واحد ودماؤهم اختلطت فللعرب مثلا " مصاهرة مع النبط من جهة مارية القبطية التي أهداها المقوقس لنبينا عليه السلام فأتت معه بإبراهيم ومات قبل أمد الرضاع فقال: "إن له مرضعاً في الجنة " وقال " لو عاش ابراهيم لم يعط الجزية قبطي[٦١٦] " ولعل الأمير كان يأمل من خلال هذا كسر تلك الحواجز النفسية والدينية والعرقية التي كثيرا ما كانت معوقات في سبيل الحق والسلام والوئام والأخوة الإنسانية فالكل من آدم وآدم من تراب:

العرب والروم وفارس فاعلمن

ولد سام فيهن الخير كن

القبط والبربر والسودان

ولد حام ثبت البرهان[٦١٧]

و في تراثنا الإسلامي كثير من القصص والشواهد التي يرجع إليها عبدالقادر

للتدليل على مذهبه الإنساني ونظرته إلى غيره دون استعلاء فقد روى " أن اعرابيا جاء معاوية فقال له : " سألتك بالرحم الذي بيني وبينك إلا ما رفدتني ، فقال : أنت من عبدمناف ؟ قال لا ، قال : أنت من قريش ؟ قال : لا ، قال : أنت من العرب؟ قال : لا ، قال : أي رحم بيني وبينك ، قال : رحم آدم ، قال : رحم آدم فجوة لأكونن أول من وصلها" فأعطاه[٦١٨]" .

كما عرض الأمير في هذا الفصل لبعض القصص التراثية القديمة المستوحاة من مصدره الأساسي ومن موروث الأمم القديمة كقصة "ياجوج وماجوج[٦١٩] " وقصة النمرود مع سيدنا ابراهيم الخليل[٦٢٠] وأصحاب الأخدود[٦٢١] معدداً صفات وأخلاق ومآثر بعض الملوك المشهورين عارضا لسير بعض الأنبياء مفرداً قسطاً من هذه الصفحات للتغني بحب الوطن والحنين والشوق إليه . ذاك أن حب الوطن من الإيمان كما جاء في المأثور ، فالكريم "يحن إلى وطنه كما يحن النجيب إلى عطره[٦٢٢] " . مستحضرا مختارات من الشعر العربي التي تصور هذا الحب وهذا الحنين وتشد الآصرة[٦٢٣] .

وينهي الأمير هذه المذكرات بخاتمة عدد فيها أسماء الشهور العربية ، تأكيدا لانتمائه وتعلقا بتراثه ، مفصلا القول عن مزايا وخصائص كل شهر من هذه الأشهر ، فهو يذكر مثلا : أن محرم سمي بهذا الاسم " لتحريم القتال فيه ، ثم صفر لخلو مكة من أهلها فيه . . . ثم الربيعان ارتباع الناس فيهما أي لإقامتهم في الربيع زمن المطر ، ثم جماديان لأن الماء يجمد عليها في زمن البرد[٦٢٤]" . دون أن يغفل –طبعا– ذكرى أسماء بقية الشهور عند العجم خاتما حديثه بالتطرق إلى علامات قيام الساعة وأشراطها[٦٢٥] .

وتبقى هذه المذكرات مصدراً تاريخياً هاماً لاستكشاف بعض الجوانب الخفية في

حياة الأمير لما تحمله من حقائق فهذا المخطوط يعد بحق " تحفة من أهم التحف لأنه نسخة فريدة ولأنه ذو صفات خاصة وله تاريخ خاص . . . فكل جملة تاريخية في هذا المخطوط لها قيمتها الخاصة لأنها مكتوبة بأيدي شهود عيان عاشوا الأحداث وصنعوها بأيديهم وأعطوها تفسيرها من داخل الواقع الذي التحم بأنفسهم أيما التحام، ومهما تكلم الأمير عن نفسه بعفة وتواضع، أو تكلم عنه خليفته ببعض الإعجاب، فإن أسلوب الكتابة يبقى أسلوباً مباشراً ميزته الأولى الصدق الأمانة وبساطة التعبير"[٦٢٦] .

٤ - المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد:

يجمع باحثو ودارسو حياة الأمير عبدالقادر وآثاره على أن كتاب " المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد" هو أهم مصنف ألفه الأمير سواء من ناحية الحجم أو الموضوعات التي يبحثها حيث أودع فيه زبدة تجاربه وبين فيه بوضوح مذهبه الروحي والصوفي والفلسفي في الوصول إلى الحقيقة التي ينشدها" وحصيلة تأملاته حيث أقدم فيه على تناول القضايا العويصة في تاريخ الفكر الإسلامي . . . . وبث فيه آراءه الإصلاحية بثاً دقيقاً آملاً متفائلاً بتحقيق رجائه الودود المنشود في الإصلاح لأن المواقف أمثلة لما يراه ويريه غيره في مجالسه لا سيما الخاصة منها لخلصائه ومريديه[٦٢٧].

والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات يبلغ عدد صفحاتها مجتمعة ١٤١٦ ص تضم ٣٧٢ موقفا وقد طبع المواقف لأول مرة سنة ١٣٢٩هـ -١٩١١م وأعيد طبعه ثانية في عام ١٣٦٢هـ-١٩٦٦م عن دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر وهي طبعة منقحة " بوبت ورتبت بالاستناد إلى النسخة الأم الأصلية المكتوبة بخط المرحوم السيد الأمير عبدالقادر الجزائري وقد قوبلت على نسخة عالم الشام الكبير المرحوم الشيخ

عبدالرزاق البيطار المحلاة هوامشها بتقييدات وملاحظات هامة بخط المرحوم الأمير المؤلف، كما قام بمراجعتها والوقوف على أصلها وتصحيحها لجنة من أكابر وأفاضل علماء دمشق"[٦٢٨] مما يعطى هذه النسخة قيمة علمية من حيث دقة التحقيق وصحة ما جاء فيها نسبة للأمير إلا أن عيب هذه النسخة يكمن في عدم وجود فهرس في كل جزء على حده مما يضطر القارئ إلى العودة إلى فهرس الجزء الثالث في سبيل تحديد الموقف أو الصفحة التي يريدها .

أما عن اختيار الأمير لهذا العنوان " المواقف" فإننا نجد أن الأستاذ بوعبدالله غلام الله في دراسته لهذا الكتاب يذكر أن الأمير يشير دائما إلى مصادره " وما كان يلقى إليه في المنام أو اليقظة وهو قائم في الصلاة وما أخذه عن رسول الله مباشرة أو ما تلقاه من الشيخ محيي الدين بن عربي يقظة أومناما ولكنه لم يذكر من أين أخذ هذا العنوان الذي وضعه في كتابه الضخم في التصوف والاجتهاد"[٦٢٩] على أن بعض الباحثين يرجع تسمية المؤلف بالمواقف إلى أن الأمير أراد أن يتشبه بغيره من أعلام التصوف " الذين ألفوا كتباً بهذا العنوان ومنهم محمد عبدالجبار النفري[٦٣٠] المتوفي سنة ٣٥٤هـ - ٩٦٥م وبن قضيب البان عبدالقادر بن محمد المتوفي سنة ١٠٤٠هـ -١٦٣٠م صاحب كتاب المواقف الإلهية على نسق الفتوحات المكية "[٦٣١]

ألف الأمير كتابه بدمشق وكان تأليفه هذه الموسوعة الجامعة حصيلة لثقافة الأمير الصوفية كما جاء استجابة لطلب بعض جلسائه من العلماء الذين التمسوا من الأمير أن يدون لهم ما يلقيه في دروسه وما يتكلم به في مجالسه والكتاب خلاصة اعتكاف وانكباب على مدى العقدين الأخيرين من حياته على القراءة والتأمل " لموسوعة ابن

عربي الصوفية وهي الفتوحات المكية وقراءة فصوص الحكم وكل كتب محيى الدين بن عربي وكان جادا في هذه الفترة المقدرة بقرابة عشرين سنة في تأليف كتابه الضخم الموسوم بالمواقف . . . . ويعد الأمير أخلص تلامذة بن عربي وأشدهم تمسكا وعملا بمذهبه ونظرياته"[٦٣٢]

يستهل الأمير كتابه بفاتحة تنبئ على أنه لم " يكن شاكاً ولا حائراً بمعنى عدم الاهتداء إلى طريق الصواب وإنما ه يفتعل الشك فقط أو على الأصح يثير الحيرة من حيث هي إشكال تعجز أمامها التفسيرات العقلية المعتمدة في مناهج المتكلمين والفلاسفة لأنها تفسيرات متناقضة فيما تقترحه من حلول"[٦٣٣]

ولذلك فهو يؤكد أن عمله هذا ما هو إلا " نفثات روحية وإلقاءات سبوحية بعلوم وهبية وأسرار غيبية من وراء طور العقول وظواهر النقول خارجة عن أنواع الاكتساب والنظر في الكتاب قيدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا إذا لم يصلوا إلى اقتطاف أثمارها تركوها في زوايا أماكنها إلى أن يبلغوا أشدهم ويستخرجوا كنزهم[٦٣٤]"

والأمير أودع في سفره هذه الأسرار والعلوم والإلقاءات التي لم يكتسبها علما ولم يقرأها في كتاب وإنما هي هبة ومنة من الله تعالى" فهي من قبيل العلم الموهوب لا صلة له فيها بالاكتساب ولم يتلقها من كتاب ، يقدمها في تصنيف عسى الله أن ينفع به إخوانه في طريق الرحمن[٦٣٥] ثم يعمد الأمير بعد هذا إلى شرح وتبيان مذهبه بوضوح في كتابه حتى لا تؤول أقواله وتفهم بغير ما يقصد إليها فيقول " وطريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم ولا الحكيم المعلم ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة وسنة الرسول المرسلة وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والسادات

والعارفين "[٦٣٦] وهو ما يؤكده الأمير في أول موقف من مواقفه حين يقول " أهل طريقتنا رضي الله عنهم ما ادعوا الإتيان بشيء في الدين جديد وإنما ادعوا الفهم الجديد في الدين التليد، وساعدهم الخبر المروي أنه لا يكمن فقه الرجل حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة [٦٣٧] بل نرى الأمير يحذرنا من أولئك الغلاة الذين " يصيرون حينئذ حلولية أو اتحادية أو اباحية أو ما شاء الله من الضلالات فهم مع هذا يتخيلون أن ما هم عليه هو طريق الله تعالى وأنه أسنى ما يتحف الله به من اصطفاه من عباده فقنعوا بكلمات من الحقائق يتمشدقون بها في المجالس ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، حبطت أعمالهم فلا يقيم لهم الحق تعالى يوم القيامة وزناً، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، فلا يرفعون بالأوامر والنواهي الشرعية رأسا، يستهينون بالأعمال الصالحات وأنواع القربات ولا يناجون الحق بكلامه في الصلاة والتهجد في الليالي المظلمات، فالحذر الحذر إخواني ممن هذه صفاتهم والنجاء النجاء ممن هذه سماتهم[٦٣٨] ولذلك فإن الأمير " وأمثاله من العارفين لم يدعوا إلى الإتيان بشيء جديد في الدين وإنما كان غرضهم الوصول لفهم جديد للدين التليد استنادا إلى الشريعة واجتهادات الذين سبقوهم من المتصوفة التابعين للسنة[٦٣٩]

وقد استمد الأمير مادة كتابه أساسا من القرآن الكريم ومن أحاديث الرسول(ص) وبعض أقوال ومآثر القوم الصوفية، ويعكف الأمير على شرحها أو تفسيرها والتعليق عليها وابداء رأيه فيها والرد على الأسئلة التي كانت توجه إليه فيخصص لكل مسألة موقفا من المواقف .

والملاحظ أن هذه المواقف تتباين وتختلف، فهي تارة قصيرة لا تتعدى بضعة أسطر وفي أحيان أخرى يفرد الأمير صفحات للحديث عن موقف معين .

وحقيق علي أن أعترف أن دراسة المواقف ليست بالأمر السهل لأنها تتطلب تفرغا تاما ووقتا طويلا حتى يتمكن الباحث من الوصول إلى الدلالات الحقيقية العميقة وفهم هذه المواقف وآراء الأمير التي لم تكن منفصلة عن موروثه الثقافي الإسلامي ذلك أن " الأمير عبدالقادر رحمه الله كان كثير المطالعة للكتب فقد مارس التصنيف غير مرة تشهد آثاره على أنه كان يقتبس من كتب غيره ككل الناس لأن من يؤلف كتابا يفسر فيه قضية بعينها علمية أو أدبية أو شيئا آخر، فهو يحتاج إلى عناصر تدخل في بناء مشروعه وفي أغلب الأحيان لا يجدها كلها عنده"[٦٤٠] .

ومع هذا سنحاول أن نتتبع الأمير في كل جزء لإعطاء صورة أو قل وصفاً لكل مجلد من هذه المجلدات وذلك على الرغم من صعوباتها .

فالمجلد الأول تبلغ عدد صفحاته ٤٨٠ صفحة يضم ٢١٥ موقفا تبدأ بالموقف الأول " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة – الأحزاب آية ٢١ وتنتهي بالموقف ٢١٥ " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون– العنكبوت الآية ٢٩، وتختلف مواقف الجزء الأول طولاً وقصراً فمن أقصر المواقف الموقف ٨٤ص ١٦٣ – الموقف ٧ ص٣٨ الموقف ٦ ص ٣٨ أما أطول المواقف في هذا الجزء فهو الموقف ٢٠٩ ص٤٥٧ والموقف ٨٩ ص ١٨٠ والموقف ٨٦ ص ١٦٧ أما بقية المواقف الأخرى فصفحاتها متقاربة .

ومادة هذه المواقف لا تخرج عن تفسير لآيات من الذكر الحكيم وذلك ما طغى على أغلب مواقف الجزء الأول كما تعرض الأمير إلى شرح بعض الأحاديث النبوية كالموقف ٩ ص٤٢ والموقف ٢٢ص ٦٥ كما نجد مواقف لتفسير بعض الأقوال أو الآراء وخاصة لابن عربي شارحا ومعلقا ومنتصرا لشيخه إمام العارفين كما يسميه الأمير، من

مثل الموقف ٢٥ص٧٠ والموقف ٤٨ ص ١٠١ والموقف ٥٧ ص ١٥ على أن هناك قسماً رابعاً في المواقف لا هي بالآية ولا بالحديث ولا بالقول المأثور يأتي به الأمير في موقف صوفي ثم يقوم بعرضه وتفسيره كما في الموقف ٧٦ ص ٣٨ والموقف ١٧ ص ٥٦ والموقف ٣٠ ص ٧٥ وغيرها .

والمتصفح لهذه المواقف يجد أن الأمير يوغل في تفسيرها بأسلوب طافح بالرؤى والصور والتخيلات على منوال السالكين المستعذبين للألم وركوب الخطر غايتهم في ذلك الوصول إلى الواحد الأحد والحقيقة فهي الطمأنينة والسكون بعد التعب والعناء في مسامات التاريخ وفضاءات التصوف الإسلامي وكأن الإنسان يبدأ من الزمن الراهن ثم يعود رويداً رويداً مسافراً في الأزمنة الغابرة في رحلة إيمانية ، وهذا ما حصل مع الأمير وغيره من المتصوفة الذين لا يتهيأ لأحدهم هذا " إلا لمن حصل التجارب الروحية والعنيفة نصيباً موفوراً ثم راح يجتر الماضي وقد أحاله إلى تسليم في الابتهالات تسري فيها شائعة الألم الكليل بل العليل وهذا كله لا يتحقق إلا في سن متأخرة تماما[٦٤١] " .

ومواقف الأمير مختلفة في أسلوبها فبعضها ميسر الفهم لا يتطلب عناء ولا مشقة في فهم معانيه وبعضها الآخر لا يأتي إدراكه إلا بصعوبة كبيرة ولا تفهم رموزه واشاراته إلا لأهل الصنعة ممن يمتلكون هذا الفيض الصوفي .

ففي الموقف ١٣٣ مثلا والذي ينبري فيه الأمير لشرح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " نرى الأمير يلجأ إلى تبسيط الحديث ويتدرج في شرحه بلغة سهلة بسيطة ويبين دلالته ومعانيه فيتناوله جزءا جزءا متدرجا فيرى أن الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون فرضا على فئة دون أخرى أو شخص دون آخر، ولذلك فقد أتاح الله لكل واحد الوسيلة التي تمكنه من أداء هذا الواجب الذي تستقيم به حياة الأمة كل حسب اختصاصه وقدراته يقول الأمير " اعلم أن التغيير باليد هو للسلطان والحكام الذين جعل لهم ذلك، والتغيير باللسان هو للعلماء الذين عرفوا بالعلم والتظاهر به بين العوام والتغيير بالقلب هو لعامة المؤمنين العارفين بالمنكر[٦٤٢] " . ذلك أن الأمير يؤمن بهذه الاستعدادات والفروق ولكل طبقة وسيلتها ومنهجها في ردع المنكر وأهله، فالحاكم بيده الوسائل التي تمكنه من تحقيق ذلك ولكنه لن يستطيع أن يستخدمها دون وجه شرعي فتكون فتاوى العلماء هي الرخص التي تفسح الطريق أمام السلطان لمحاربة الفساد، والعلماء أكاليل الهداية وقدوة الناس فيكون حينئذ الإجماع ويتحقق شرع الله في أرضه ليعم الأمن والسلم والخير . وهكذا نجد أن الأمير يقسم هذه التكاليف فلا يبقي هذا الوجه الشرعي منوط بفئة دون أخرى، وكعادة الأمير دائما فإنه يستشهد بما يراه موافقاً ومتمماً لقوله معززاً لحجته فيورد من أقوال السلف وخاصة مما أثر عن إمام العارفين وغيره من علماء الإسلام، وذلك أن الأمير لا يصدر في أحكامه وتعليل آرائه من عدم، وإنما يحاول دائما ربطها بأصولها ومصادرها وهي لا تخرج عن القواعد الثلاث: القرآن- الحديث -والأثر الصالح، ويتصاعد مستوى الخطاب فإذا نحن أمام أسلوب ومقام يختلف تماما عن سابقه فيراعي فيه مقتضى الحال وما يتطلبه تفسيره لبعض الآيات من فهم خاص تغلب عليه تلك النزعة الصوفية .

وفي الموقف ٨٣ يورد الأمير قوله تعالى: " وأما بنعمة ربك فحدث " فيؤكد على أن هذه الآية ألقيت عليه إلقاءً غيبياً مراراً عديدة كما تلقى نصف القرآن وأكثره بهذه

الطريقة" فإن الله تعالى قد عودني في أنه مهما أراد أن يأمرني أو ينهاني أو يبشرني أو يحذرني أو يعلمني علماً أو يفتيني في أمر يردني إلي فأرجع بالآية قرير العين ملآن اليدين ثم يلهمني ما أراد بالآية وأتلقى الآية من غير حرف ولا صوت ولا وجهة، ولقد تلقيت، والمنة لله تعالى، نحو النصف من القرآن بهذا الطريق وأرجو من كرم الله تعالى أن لا أموت حتى أستظهر القرآن كله[٦٤٣] " .

يبدأ الأمير في تفسير الآية معتبرا أن أعظم نعمة وأفضل منة فاء الله بها على عبده هي نعمة العلم الذي يوصل صاحبه إلى معرفة الله والإقرار بوحدانيته والإيمان بالرسل والأنبياء وما جاؤوا به من أحكام وسنن ظاهرة وغيبية والرضا بالقدر خيره وشره وخير السبل إلى هذا هو العلم وحده، ومن هنا كانت ولا شك نعمة من أعظم النعم إن لم تكن أعظمها على الإطلاق وما دونها " من النعم مجاز بالنسبة إليها[٦٤٤] " ولذا كان العلماء أو العارفون هم السباقين إلى تعظيم الله والشكر له والثناء عليه كل حسب طريقته وكل حسب استعداده لأن العلم نفسه متفاوت بين الناس وادراكهم له يتوقف بحسب إمكاناتهم " إذ ما كل علم يصلح لكل الناس ولا كل الناس يصلح لكل علم بل لكل علم أهل، لهم استعداد لقبوله وهمة والتفات إلى تحصيله[٦٤٥] " والتعبير عن الشكر عند الأمير صفة محببة فإن الله إذا أنعم على عبده أحب أن يرى اثر نعمته عليه وهذا الأثر هو الإقرار بالشكر" فإذا كانت النعمة مما يظهر بالفعل أظهرها بالفعل وإن كانت مما يظهر بالقول أظهر بالقول والتحدث عنها"[٦٤٦] ثم ينتقل الأمير من موقف جزئي إلى آخر فيضمنها الآيات والآحاديث مفسراً تارة ومبدياً رأيه أخرى وذلك ديدنه في أغلب المواقف تقريبا في نزعة أسلوبية يغلب عليها الرمز الصوفي الذي لا تكاد تتضح معانيه في كثير من الأحيان .

أما المجلد الثاني فيحمل العنوان نفسه ويشمل ٨٢ موقفا ويبدأ من ص ٤٨١ والموقف ٢١٦ وينتهي ص ٩٦٢ وبالموقف ٢٩٨ الذي لم يكتمل في هذا الجزء وهي طريقة السلف في التدوين .

والمواقف في المجلد الثاني لا تختلف في طريقة عرضها وتحليلها عما جاء به الأمير في المجلد الأول فهي كسابقتها شرح وتفسير وتحليل وتأويل لآيات من الذكر الحكيم وأحاديث شريفة وبعض الأقوال المأثورة عن الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم، ولعل الملاحظة التي يمكن تسجيلها هو طول الموقف ٢٤٨ الذي يشمل زهاء ١٧٥ ص، من ٥٦٥إلى ٧٤٣ قسمه عبدالقادر إلى حوإلى ٩٠ عنواناً وهي أشبه بكتاب مستقل ولذلك أشار الأمير على قارئه إن " شاء فليجعل هذا الموقف رسالة مستقلة يسميها بغية الطالب على ترتيب التجلي بكليات المراتب"[٦٤٧] .

ففي الموقف ٢٣٣ وفي قوله تعالى " وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم"- الشورى آية ٣٠ يتصدى الأمير لشرح وتفسير هذه الآية ولكنه قبل أن يبدأ في ذلك نراه يدرج تحتها بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تعالج الموضوع نفسه ويسير في السياق نفسه من مثل " وورد في الخبر «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» يُبتلَى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبدحتى يتركه يمشي على وجه الأرض وما عليه خطيئة[٦٤٨] " .

وينبه عبدالقادر وهو يمضي في تفسير الموقف أنه ليس هناك اختلاف ولا تعارض فيما بين الآية وهذه الأحاديث " لأن الآية واردة في مسمى المصيبة حقيقة وهي لا تكفر بها خطيئة ولا ترفع بها درجة والأحاديث واردة في مسمى المصيبة مجازا بحسب

الظاهر وهو المسمى ابتلاء واختباراً وتمحيصاً وبهذه الأسامي ورد في الكتاب والسنة بكثرة"[٦٤٩] ويرى عبدالقادر أن هذه المصائب وهذا الابتلاء نفسه ليس بدرجة واحدة ولا ينزل بفئة واحدة بنفس المستوى والحدة، ولذلك فإن الله جعل الثواب علة تحملها والصبر عليها بحسب درجتها ووعد الصابرين، ويرى عبدالقادر أن ما يحل بالإنسان من آلام على ثلاثة أنواع " مصيبة وهو ما يصحبه التسخط والاعتراض وهو خاص بالكفار وبعض ضعفة الإيمان، وابتلاء وتمحيص واختبار وهو الذي يصحبه الصبر وعدم التسخط وهو لأهل الإيمان الكامل[٦٥٠] " . فالمقربون إلى الله دائما ليسوا بمنأى عن الابتلاء حتى ولو كانوا رسلا وأنبياء والكملة من ورثتهم لأن الذي " يحل بالكفار وضعفة الإيمان فهو مصيبة، وما يصيب خاصة المؤمنين فهو تكفير سيئات كما ورد في الأخبار الصحيحة، وما يصيب خاصة الخاصة كالأنبياء والصالحين الأمثل فالأمثل فهو ترقى درجات ونعم خفيات[٦٥١] "ولذلك كان الثواب عظيما والأجر بغير حساب " فما يحل بالأنبياء والأمثل فالأمثل ظاهره محنة، وباطنه منحة، وهو تعالى قادر أن يرفعهم لدرجات الكمال من غير ابتلاء، ولكن حكمته اقتضت هذا، فلا يسأل عما يفعل[٦٥٢] " ولذلك فكل بلية تلحق المؤمن فهي نعمة وقد ورد في الصحيح " عجبت للمؤمن أن الله لم يقض له قضاء إلا كان خيرا له – رواه الإمام أحمد– وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال: ما أصابتني مصيبة إلا رأيت الله فيها على ثلاث نعم: أحدها كونها لم تكن في ديني، ثانيها: أنها لم تكن أكبر فإنه ما من مصيبة إلا عند الله ماهو أعظم منها وثالثها ما وعد الله من الأجر[٦٥٣] " وتلك لعمري أقصى درجات الإيمان وحسن الظن بالله الذي لا يخيب من ترجاه ولا يذل من والاه .

وهكذا يمضي الأمير في مواقفه يحلل ويفسر ويستعرض ما في جعبته من الشواهد

من الموروث ليعيش الموقف روحاً وثقافة وإيماناً بإشارات إلهية وتجليات روحية يرتقي الدرجات الصوفية فتحتجب عنده لغة الكلام وتنفتح أمامه الأبواب ويتنفس له صبح العناية الإلهية فإذا هو يحقق رجاءه.

وفي الموقف ٢٦٨ ص ٨٠٧ يتناول الأمير قوله تعالى " فلا تسئلن ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين " هود آية ٤٦ . فيذهب في تفسيره تفسيراً ينم عن إدراك حقيقي وفهم لمعاني القرآن الكريم من حيث هو توجيه رباني للبشرية فيه خيرهم إذا ما تدبروا آياته وفهموا معانيه، فالإنسان في رأي الأمير كثيرا ما تخدعه مظاهر الأشياء فتصرفه عن جوهرها وبالتالي تكون قسمته ضئزى من الخير والنفع، وإذا ما استبان الأمر وتحققت الخسارة يلجأ هذا الإنسان الضعيف الهلوع الجزوع إلى بارئه يدعوه خوفاً وتضرعاً لأن" الحق تعالى أمر عباده أن يسألوه ما هم محتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم وأخبر سيد السادات: أن «الدعاء مخ العبادة» كما أخبر «أنه تعالى يحب الملحين في الدعاء[٦٥٤] " .

فالإنسان في رأي الأمير يدعو الله فيما يعتقد أنه خير وصلاح له والاختيار إليه – سبحانه وتعالى– فيما هو الأصلح والأنفع ويستشهد الأمير على صحة هذا بقوله: " . . . . أبو بكر سأل الله العافية ومات مسموماً . . . . عمر سأل الله العافية ومات مطعوناً . . . . عثمان سأل الله العافية ومات مذبوحاً . . . . علي سأل الله العافية ومات مقتولاً، فهؤلاء سألوا الله العافية من حيث يعلمها هو تعالى عافية لا من حيث يعلمونها هم عافية فأجاب الحق – تعالى– سؤالهم بالعافية[٦٥٥] " .

ومن هنا فإن الإنسان كثيرا ما يستعيذ بالله من أشياء يعتقد أنها شر ويرجو الله

أشياء يحسب انها خير وربما يكون العكس، فرب ضارة نافعة ورب نافعة ضارة، ومن هنا لا يكون الدعاء في نظر الأمير عبادة " إلا مع التفويض للحق تعالى العالم بعواقب الأشياء وبواطنها فالعالم الحاضر مع الحق تعالى لا يسأله شيئا خاصاً معيناً على القطع أنه خير له إلا إذا أعلمه الحق تعالى بخيريته وأطلعه على عينه الثابتة . . . . فإنه العالم على الإطلاق بما هو الخير والمصلحة"[٦٥٦] .

ويستشهد عبدالقادر بآيات صريحة في هذا من مثل قوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) -البقرة ٢١٦- ولذلك يدعو الأمير الإنسان إلى تفويض أمره إلى الله ويحسن الظن به فتخلص نيته والله ألطف بعبده من نفسه" فلا يسأل السعادة والخير فيما يتخيله ويظنه من أسبابها على القطع والجزم ولا يستعيذ من الشر والشقاء فيما يظنه من الأسباب فإن من أسمائه تعالى اللطيف وهو الذي يخفى الأشياء في أضدادها كما أخفى ليوسف عليه الصلاة والسلام الملك في الرق والسجن وأنواع من الشر والبلايا ظاهرا فقال لذلك (إن ربي لطيف بما يشاء) - يوسف آية ١٠٠ - [٦٥٧] .

أما المجلد الثالث وهو الأخير في هذا المصنف الضخم فيبدأ من صفحة ٩٦٣ إلى ١٤١٦ ويبدأ الموقف الأول منه ٢٩٩ في الصفحة ٧٩٩ ويضم هذا المجلد ٧٣ موقفا يشتمل على آيات قرآنية وأحاديث نبوية وشرح لبعض المأثور وينتهى بقصيدة أميرية في التصوف أنشدها الأمير في مدح شيخه الصوفي وقد عرضنا لها بالدراسة في فصل الأمير الشاعرعلى أننا نلاحظ أن هناك اختلافا كبيرا بينها وبين القصيدة التي وردت في الديوان .

وينتهي هذا المجلد بفهرس عام للأجزاء الثلاثة فيها أرقام الصفحات وعدد المواقف

وهو الأمر الذي يضطر القارئ في بحثه عن موقف أن يعود إلى المجلد الثالث وتتراوح المواقف طولا وقصرا أيضا في هذا المجلد فمن المواقف الطويلة موقف ٣٥٦ ص ١١٩٧ والموقف ٣٥٥ ص ١١٦١ وهناك بعض المواقف التي لا تتجاوز الصفحة كالموقف ١٣٠ ص ٩٨١ والموقف ٣٠٦ ص ٩٩١ .

ففي الموقف ٣٤٤ قال تعالى «ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها» الشورى آية ٢٠ وقال " ومن كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد" الإسراء آية ١٨ ، وورد في بعض الأحاديث الربانية أنه تعالى يقول (يادنيا من خدمك فاتعبيه ومن خدمني فاتبعيه) حيث يذهب عبدالقادر في تفسير وشرح هذا الموقف على أنه لا اختلاف بين الآيتين والحديث والمراد بهما أن الدنيا شاغلة الكثير عن خدمة الله تعالى إلا من رحم ربك وهم قليل ، فهذه الدنيا بزينتها وبهرجها وزخرفها كثيرا ما تقود صاحبها إلى الهلاك والويل إذا انقاد وراءها وجعلها في قلبه لا في يده كما يقول الأمير .

صحيح أن الله خلق الإنسان ليستعمر الأرض وليعيش فيها دون إفراط ولا تفريط فلا ينسى نصيبه من الحياة وزينتها التي أخرجها لعباده وفي الوقت نفسه لا يترك هذه النفس الأمارة بالسوء دون لجام يكبح جماحها ويوجهها وينبهها ساعة الغفلة والنسيان ، فكثيرا ما ينعم الله على عباده نعماً تكون عليهم نقمة وعذابا" فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا" التوبة ص٥٥ لأنهم لم يشكروا ولم يحمدوا وظنوا أن أموالهم مانعتهم من الله كما حصل مع قارون . لذلك يدعو الأمير إلى الأخذ بالدنيا من جانبها الشرعي والاستعداد دوما للرحيل " والتصرف فيها تصرف المستخلف لا تصرف المالك"[٦٥٨] فهذا سيدنا سليمان الذي سخر له الله كل شيء في الدنيا "هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب" ص آية ٣٩ ، لم يأمن جانبها

وكان دوما يتذكر الآخرة لأنه يعلم أنها دار لهو ولعب وتفاخر، والدنيا نفسها دار شقاء تتعب من خدمها، فيمسي عبدها وعبد الدرهم والشهوة وتسعى وتتبع من ينصرف عنها" إذ انبساط الدنيا واقبالها على من خدمها ورغب فيها عقوبة من الله تعالى لخادم الدنيا[٦٥٩] " فالعاقل من أدرك هذا قبل فوات الأوان فجعل لنفسه من دنياه حظا يتزود منها لسفر طويل وليس المراد بهذا في رأي عبدالقادر الزهد والانقطاع التام والإعراض عن الدنيا بل التوسط في الأمور وهي شريعة المؤمن في الحياة ولا ريب.

وفي الموقف ١٣٠ ص ١٠١٦ يتناول الأمير قوله تعالى: " إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر " العنكبوت آية ٤٥، بالشرح والتفسير فيرى بأن الله تعالى فرض هذا الركن على المسلمين وألزمهم به، بل وجعل الحد بين المؤمن والكافر الصلاة، ذلك لأنها الرباط الوحيد الذي يظل يصل العبد بخالقه، فهي عبادة ومناجاة وذكر ودعاء وخلوة ورياضة وفي هذه الآيات للعبد ثلاث بشارات من الله سبحانه وتعإلى " الأولى أنها تنهي فاعلها عن الفحشاء وهو كل ما نهى الشارع عنه وعن المنكر وهو ما لا يعرف في شريعة ولا سنة قولاً أوفعلاً والمعروف ضده[٦٦٠] " فالعبد حين يكبر فقد ولج ملكوت الله فينصرف عن الدنيا والأهل ليبدأ في التلاوة والركوع والسجود والتسبيح والتكبير والتحميد فتجتمع له فيها " المشاهدة والمناجاة فما فيها محل للاشتغال بالفحشاء والمنكر ظاهرا وباطنا ولذكر الله فيها وهو القرآن أكبر من جميع ما اشتملت عليه[٦٦١] " .

وأما البشارة الثانية للمؤمن فيها فإن " عاقبة المصلي لا تكون إلا خيرا ولا يموت إلا على توبة ولو كان في سبيل مكروه، ويستحضر الأمير هنا بعضا من موروثه ليتكئ عليه فيقول " ففي الصحيح أن فتى من الأنصار كان يحضر الصلوات الخمس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولايدع شيئا من الفواحش إلا ركبه فوصل لرسول الله

صلى الله عليه وسلم فقال: ستنهاه صلاته • فكان كما قال . تـاب وحسنت توبته[٦٦٢] " . وذلك لحسن العبادة وصدق أداء الركن فغلب جانب الخير على هذه النفس وكان النصر في الأخير للخير .

وأما البشارة الثالثة وهي " أكبر " حين يذكر الخالق عبده ويقبل عليه مع الرضى والقبول فيتعهده برحمته مصداقاً لما جاء في " الصحاح " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، يقول العبد، الحمد لله رب العالمين، فيقول الله: حمدني عبدي، فيقول العبد، الرحمان الرحيم، فيقول الله: أثنى علي عبدي، فيقول العبد، مالك يوم الدين، فيقول الله: مجدني عبدي، وفي روايـة " فوض إليَّ عبدي "، فيقول العبد، إياك نستعين، فيقول الله: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل[٦٦٣] " .

فأي فضل وأي منة بعد هذا، حين يذكر الله هذا المصلي فيما عنده من الأخيار والأبرار ويحاوره حوارا كله خير وكله بشارة فما يكاد ينتهي من فرضه خشوعا وقنوتا حتى تكون له قدم صدق عند ملك المقتدر .

وخلاصة القول أن هذه المواقف بما تحمل من تراث يعبق أصالة يرنو إلى التجديد تستحق لوحدها تفرغاً تاماً واستعداداً كلياً لفهمها على الصورة التي يجب أن تفهم بها .

ب - رسائله ومراسلاته:

١ - رسائـله الإخوانيـة:

لا شك أن نتاج الأمير ككل نتاج أدبي " يتصل اتصالاً وثيقا بتكوينه الثقافي والعلمي، وبالبيئة الفكرية التي نشأ فيها كما يتأثر في بعض جوانبه بالواقع الاجتماعي والسياسي الذي عاشه سواء أثناء مقاومته الجبارة أو بعدها، لذا فدراسة نتاج الأمير

الأدبي تقتضي مراعاة هذه التأثيرات كلها والتعرف على مدى أهميتها "[٦٦٤]، هذا بالإضافة إلى أن التعرض إلى هذا الأمر –مهما كان بسيطا في نظر بعض الناس شعرا كان أم نثرا – سيلقي حتما بعض الأضواء على نفسيته ويطلعنا على أمور هامة خفيت من شخصيته، ناهيك على أن هذه الآثار مرآة صادقة لثقافته وثقافة العصر الذي عاشه، ومن هنا فإن دراسة هذه الرسائل بالإضافة إلى شعره، قد تكتسب بعض الأهمية من هذه الناحية، بل وتساعدنا على إيجاد بعض الأجوبة للتساؤلات التي قد تخطر على بال دارسي حياة الأمير وثقافته وهي بلا ريب كثيرة ومتعددة.

فعبدالقادر كثيراً مااستعان بالرسائل لتقوم مقام بعض الفنون النثرية الأخرى كالخطابة مثلا في الدعوة للجهاد وتوضيح بعض الأمور السياسية والدينية وتوعية الشعب، ووضعه أمام الصورة الحقيقية لهذا الصراع بينه وبين عدوه، ذلك "لأن فن كتابة الرسائل يتشابه مع الخطابة فنياً، فهو يتفق معها كذلك في الغرض الأساسي، فكما كان الغرض الأساسي في بداية ظهورها، فقد نشأ فن الكتابة الديوانية لرعاية أحوال الأمة الإسلامية ومصالحها، إذ كان يستخدم في تسجيل شؤون الدولة الرسمية إبان الحرب والسلم، وهذا يتعلق بمصالح الأمة وأحكام الشريعة"[٦٦٥]. وقد تعددت أغراض مراسلات الأمير الإخوانية على أنها انصبت حول نقاط رئيسية ثابتة تدور حول:

- الدعوة إلى الجهاد والحث على مقاومة العدو، وهي المراسلات التي كان يبعثها الأمير إلى خلفائه وقواد جيشه ورؤساء بعض القبائل.
- طلب الدعم والتأييد والعون باسم الأخوة الإسلامية من العثمانيين شاكراً فضلهم في بعضهاً، ومهنئا في أخرى.
- التشاور وتبادل الآراء مع سلطان المغرب قبل استسلام هذا الأخير ورضوخه

للشروط الفرنسية .

- توضيح موقفه وموقف الإسلام من أحداث فتنة دمشق في رسالته إلى المجاهد الإمام محمد شامل .[٦٦٦]

وسنحاول أن نتعرض- بإذن الله -إلى بعض هذه الرسائل التي اخترناها كنماذج للتدليل على ما كانت عليه علاقة الأمير الأخوية مع هؤلاء، ولإبراز بعض الملامح الفنية التي تضمنتها هذه المراسلات حتى يكون حديثنا عن هذا الجانب متمماً لحديثنا عن الأمير الشاعر .

والحقيقة أننا لم نتبع في دراستنا لهذه الرسائل الجانب التاريخي من حيث ترتيبها، وإن كانت كل رسالة تدل على الفترة الزمنية التي كتبت فيها لأن الهدف من هذه الدراسة هو الجانب الأدبي والفني في أسلوب عبدالقادر .

فالرسالة التي بين أيدينا وهي الأولى التي نستهل بها هذه الدراسة وجهها الأمير لأهل فجيج في ١٧شوال ١٢٥١ الموافق لـ ٥ فبراير ١٨٣٦م، وقد كان الغرض الأساسي من هذه الرسالة أو النداء- إن صح القول- هو طلب العون وتأييد وتلبية نداء الجهاد في سبيل الله والوطن، وعلى الرغم من أن هذه الرسالة لم تجد آذانا صاغية لدى أهل فجيج بالسرعة التي كان يرجوها الأمير ولم يلبوا نداءه في حينه، إلا أنها كانت محاولة من عبدالقادر لبعث الحمية الوطنية في أفراد هذه القبيلة ومثيلاتها .

وصدق حدس الأمير وظنه ففي سنة ١٨٤٦ عندما لجأ الأمير- بعد أن خانه أتباعه- إلى أهل فجيج حيث استقبلوه أحر استقبال وبالغوا في إكرام وفادته .

يستهل عبدالقادر رسالته بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله الكريم، ثم

يتوجه بالحديث إلى أشراف هذه القبيلة وأعيانها وعلمائها بقوله : "أصلحكم الله حالاً واستقبالاً ، وسدد رأيكم ووفقكم لإمارات العصمة جلالاً وجمالاً ، وسلاماً على محافلكم السامية ، يعم مرابعكم الناهية ويتحفها بتحفة الكرامة الباهية ورحمة الله وبركاته ما ترقت الطوالع بأضوائها زاهية .[٦٦٧]

وبعد هذا السلام المدبج الذي ولاريب سيلقى قبولا في نفوس أفراد هذه القبيلة لما تضمنه من مشاعر صادقة وعواطف حارة ، يخلص الأمير إلى موضوع رسالته آملا أن تجد كلماته صدى محموداً وقبولاً حسناً عند هؤلاء ، على الرغم من أن وباء الطاعون قد نزل بهذه القبائل على غرة وفتك بخلق كثير منهم – إلا أن ذلك لم يثن عبدالقادر عن محاولته عله يجد آذاناً صاغية ونفوساً ملبية لهذا النداء المقدس وخاصة أن العدو المتربص بالوطن وأهله أشد –فتكًا وأقوى دماراً – من الطاعون نفسه ، فالغيرة الدينية والوطنية دفعتا القائد الأمير إلى توضيح أبعادالقضية وتجلية الأمر أمام جميع أفراد الأمة حتى يوضع كل فرد فيها أمام مسؤولياته . يقول الأمير في هذا الصدد : " أما بعد فإن الغيرة الإسلامية تحق لأمثالكم والاعتياضات الأنفية تجب على أقوالكم وأفعالكم وكيف لا والعدو الكافر – أذله الله – جال في بلاد المسلمين وصال ، وسعى في خراب مدنهم وقصورهم بمساجدها المعدة للغدو والآصال ، وحدت شوكته على القريب والقاصي وتضافرت جيوشه على إجلاء المطيع منهم والعاصي ، وأجمع عزمه وكيده في جميع بره ، وفاض على ضوء الإسلام ظلام ليله حتى كاد يخفى جدول فجره[٦٦٨] .

ويعرض الأمير بعد هذا الوصف لحال البلاد ، للحديث عن جهاده وتصديه لمقارعة جحافل الظلم والعدوان على الرغم من إمكاناته البسيطة ، إلا أنه لم يتوان ولو

للحظة واحدة في الدفاع عن الوطن والشرف والدين، هذا الدين الذي ارتكز عليه عبدالقادر وارتضاه سبيلا لدعوة هذه القبيلة باعتبار أن العدو كافر داس على كل مقومات هذا الشعب ودنس مساجد أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه بالغدو والآصال، فأمست محاربته أمراً واجباً، وفرضاً مقدساً على كل مسلم قادر غيور على ملته وشرفه وعقيدته، ليضرب الأمير المثل والقدوة وليعلم الجميع أنه لم يدع إلى هذا الأمر إلا وكان على رأسه ." وكم اشتغلنا بمدافعته مراراً، وتداولنا معه في الحروب سراً وجهاراً إلى أن انكسرت الرماح، وتدنست بنادق الرماح، وقضت الصناديد نحوبها، وتعمدت الفرسان نصبها ولغوبها، ولازلنا على ذلك التدافع والتناول إلى أن تنفرد السليفة وتنعدم دور المناصب المنيفة غير أننا خشينا تفاقم الأمر وتزايده من قطر إلى قطر فنود من صلاح رأيكم الناجحة وسداد إشارتكم الصالحة أن تزيدوا في اخوانكم القوة السادّة وتنشروا أسرهم باسترسال المادة ."[٦٦٩]

وعلى هذه الوتيرة يمضي الأمير في استعراض الأحداث أمام هذه القبيلة لتهيئة الجو، حتى اذا ما بدأت تباشير القبول والإجابة يلوحان خلص الأمير عبدالقادر إلى هدفه الرئيسي من هذه الرسالة .

ويلجأ الأمير إلى التركيز على الجانب العقائدي والديني فأثرى رسالته بآيات من الذكر الحكيم والأحاديث النبوية التي تدعو كلها وتحث على التعاون والتكاتف والأخوة والجهاد، ولاريب أن وقعها على نفوس أفراد القبيلة سيكون ذا أثر، خاصة إذا علمنا أن مثل هذه القبائل لم تكن تعترف بغير الدين رابطاً بينها وبين بقية أفراد المجتمع الجزائري الآخر، ذلك أن فكرة القومية أو الوطنية لم يكن لها أي مفهوم ولم تتبلور فكرتها في أذهان هؤلاء، وبالتالي فإن الاعتماد على الجانب الديني من طرف الأمير

يدل على ذكاء هذا الأخير ومدى سعة أفقه ودرايته بالأحداث "فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، والمسلمون كالجسد الواحد يتألم الجميع بتألم البعض، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه، والمسلم أخوالمسلم، وتعاونوا على البر والتقوى، إنما المؤمنون إخوة، ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض[٦٧٠]، وهذا الواجب لكم في إعطاء كل ذي حق حقه والأمور الآدمية وأما مدافعة الكفار أخزاهم الله في المضابرة في الرباط، ونيل إحدى الحسنيين . الأجر والغنيمة والنعيم المقيم الذى لا يخطر على قلب بشر فلا يخفى على كريم علمكم ماورد في ذلك من الآيات القرآنية والأقوال النبوية"[٦٧١] . وبعد هذه الشحنة من الحمية الإسلامية التي بثها الأمير في نفوس هؤلاء بعثاً للهمم وشحذاً للعزائم، يميل عبدالقادر فيثني على هؤلاء الأبطال ويذكرهم أن ما دفعه إلى مكاتبتهم هو إيمانه القوي بشمائلهم الكريمة وشجاعتهم النادرة وما يعرفه عنهم من نخوة ومروءة ونجدة على مرالعصور فلا غرو إذن أن يراسلهم ويمنيّ النفس بتحقيق الرجاء المعقود عليهم" ونجدتكم وسياستكم في تدبير صنايعكم المحكمة مع غلظتكم على الكفار وشدتكم في ثبات الصفوف الحربية معلومة عندنا بالضرورة حسبما دونت خصالكم الحميدة، وأفعالكم الرشيدة في تاريخ وهران ووقائعها"[٦٧٢] .

وكعادة الأمير القائد الذي يخطط ويدبر لكل أمر ويعلم متى ومن يخاطب، فإنه يخص أشراف القوم ويدعوهم للقائه أملا ورغبة في النظام والاستعداد الحقيقي لمواجهة عدو مسلح، ذلك أن عبدالقادر يدرك أن قيادة مثل هذه القبائل في يد رؤسائها فمتى استجاب هؤلاء، فقد تحقق الأمل المرغوب، ولإضفاء نوع من التخصيص

والتقدير لسادة العشيرة فيسهل الوصول إلى الهدف بأقصرالسبل، يقول الأمير ." نرغب في حمد سراريكم أن تجمعوا جموعكم وتكونوا في قصد إعانتنا رجالاً وركبانا لتتم لنا المزية، ديناً ودنيا، وتحظوا في دار المقامة بالحظوة العليا، ويكون ابتداء قدمكم ان شاء الله عقب عيد الأضحى أول أبرير بعد أن يقدم إلينا أعيانكم لنستأشرهم في الكيفية والهيئة التي يحصل المراد منا"[٦٧٣]. ويؤكد عبدالقادر أن دعوته هذه لاتخرج عن إطار الدعوة الكبرى لتوحيد المسلمين وتعزيز الروابط بينهم زيادة في قوتهم وهيبتهم لمواجهة العدو المتربص بديار المسلمين، لا يريد من ذلك جزاء ولاشكورا، فالأمانة والمسؤولية تفرضان عليه الدعوة إلى التلاحم والتعاون والتكاتف بين إخوة الدين والوطن الواحد حتى يبرىء ذمته أمام الله وأمام رعيته التي اختارته طواعية أميراً وقائداً لمسيرة الجهاد والبناء . وحرصا من عبدالقادر على توخي كل أسباب التوفيق والنجاح فإنه يحث أهل فجيج ـ في حالة استجابتهم لدعوته ـ أن يأخذوا بكل أسباب الحيطة والاستعداد اللازم وأن يهيئوا أنفسهم ليوم عظيم لا ينفع فيه المرء الا صدقه وصبره، فوجب الحذر والسعي لتوفير كل الإمكانات المادية والبشرية، ذلك أن العدو ليس بالأمر الهين، وأن حربه ليست موقعة فيها المنتصر والمهزوم، بل هي صراع طويل شاق والبقاء فيه للأقوى، يقول الأمير: " وفي موافقتكم استصراخناواجابتكم دعانا اتساق هيكل نظم المسلمين وصرورتهم على كلمة واحدة كذات متحدة، فإن تكلفتم بمرام المطلوب فحبذا المرغوب، وأشرعوا في التأهب والتهيؤ بإقامة الكراع والسلاح والأخبية وما يعينكم من الاعتقادات الإيمانية، ولا يتخلف أحد من صناديدكم من الفرسان والعساكر، وإن اكتفيتم بنظر المكتوب ولم تجيبوا داعي الله فهذا الواجب في حقنا وحسابنا جميعا على الله، والله المستعان وعليه التكلان، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا

محمد وآله وسلم[٦٧٤] " .

أما النموذج الثاني فهو رسالة بعثها الأمير عبدالقادر إلى السلطان عبدالمجيد مؤرخة في مستغانم- شوال ١٢٥٧هـ/ ديسمبر ١٨٤١م - ، يصور فيها حال البلاد والعباد للخليفة العثماني باعتباره يمثل الوحدة الإسلامية ويطلب منه المدد والعون دفاعا عن الدين والشرف المداس ، آملا أن تجد رسالته آذانا صاغية لدى الباب العالي فيسارع بمد يد العون والمساعدة .

يستهل الأمير رسالته إلى الخليفة العثماني- بعد البسملة والصلاة على الرسول- بالثناء على السلطان رمز اتحاد المسلمين واجتماعهم بقوله" إلى سلطان سلاطين الإسلام وحامي بيضة أمة محمد(ص) طود الملوك الشامخ وركنهم الثابت الراسخ السلطان عبدالمجيد خان ، سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته[٦٧٥]

وبعد هذه المقدمة التي أثنى فيها الأمير عبدالقادر على الخليفة ، وكال له من الأوصاف والألقاب المحببة للنفس والتي جعلها الأمير غاية أو مطية للدخول إلى الغرض من رسالته المتمثل في طلب المساعدة ، على أن عبدالقادر فضل قبل هذا أن يعطي صورة حقيقية لما جرى على أرض الجزائر من صراع بين قوى الشر والكفر وبين الشعب المسلم الذي ارتضى عبدالقادر أميراً له ، بعد أن خلت الساحة من رجل كفء يقود مسيرة الجهاد لمواجهة العدو وخاصة لما رفض السلطان المغربي عبدالرحمن الثالث العرض الذي تقدم به الأهالي للانضواء تحت سلطانه بعد معارضة فرنسا لهذا الاقتراح الذي يتعارض واطماعها في الجزائر .

يقول الأمير" إننا نخبر سيدنا ونقص عليه من أخبارنا وإن كنا نعلم أن علمه محيط

بما هو أبعد من أنفارنا وذلك أن الينشارية[٦٧٦] الذين كانوا بالجزائر، لما خرجوا عن طاعة أمير المؤمنين والدك المرحوم، عاقبهم الله بسوء فعلهم وسلط عليهم من لا يرحمهم العدو الكافر الغشوم، فبدد شملهم واجتث أصلهم وملك القرى والمدائن واستولى على الأموال والذخائر والخزائن. . . فعند ذلك استغاثت الناس بالسلطان الشريف سيدنا عبدالرحمان سلطان مراكش، فبعث إلى الوطن ابن عمه مع جيش كثير فما جعل الله فيهم نفعا ولا جاهدوا ولا غنوا عن المسلمين دفعا، وانقلبوا من حيث جاؤوا ورجعوا من حيث فادوا، فلما رأى الكافر ذاك زاد في قوته وشدته، وتكالب على المسلمين القريبين من حصونه واحتاج الناس اذ ذاك إلى من يضبط جهادهم ويقوم بجميع أمورهم، فاجتمع أعيان الوطن وطلبوا ذلك من الوالد. . . فأشار الي لما سبق لي من الشقاوة في أم الكتاب، هنالك امتثلت أمره وإن كان مراً، إذ لم أعص له مدة عمري أمراً وشمرت على ساعد الجد والاجتهاد وبذلت للمسلمين نصحي في جمع الكلمة والجهاد وصيرت من وجهتي وجهتين فتارة يجمع الكلمة، وردع البغاة، وآونة للدفع عن المسلمين وقمع الكفار العتاة[٦٧٧].

وعلى هذا المنوال يواصل عبدالقادر عرض الأحداث بدقة وتسلسل للسلطان العثماني مع وصف تحليلي لكل صغيرة وكبيرة لأحوال البلاد، فذكر نقض المعاهدات من العدو واستئناف الجهاد الذي بلغ درجة قصوى من العنف والشدة والتدمير، هلك من جرائه النسل والحرث، تدور رحاه بين طرفين ينعدم التكافؤ بينهما اطلاقا، جند يفتقر إلى السلاح، والتدريب والخبرة ويفتقر إلى العتاد والعدد، وجيش عصري بما تعنيه هذه الكلمة، الا أن ذلك لم يثبط من عزيمة القائد وجنده فقاوموا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ولم يعدموا وسيلة الا التمسوها لمقارعة جحافل العدوان: " وإن جيش

الكفار المقابل يناهز المائة ألف، سلاح تام وصواعق ومدافع تصير الواحد ضعيفاً، وإنه إذا جمع قوته وقصد بعض المواضع فلا نقدر أن نرده إذ ليس لنا قوة بارود أو سلاح ولا مدافع مثل ماعنده لكي يذيقه المسلمون شديد النكال وعظيم القتال . . ومع ذلك ما ضعفوا ولا استكانوا ولا حزنوا مع الضعف الذي لا يحتاج إلى شاهد من قلة المال والسلاح الذي يعلمه الغائب والشاهد، لقد نفدت في سبيل الله أموالهم وفنيت في سبيل الجهاد رجالهم والكافر لقوته إذا خذلت له جملة جدد أخرى وإذا هلك له جيش استخلف بالآخرة وإذ احتاج لشيء أمده به سلطانه"[٦٧٨] . وهكذا نرى عبدالقادر بحنكة الدبلوماسي وصدق الجندي الوفي والتزام القائد المسؤول يضع هذا التقرير المفصل إن صح القول أمام خليفة المسلمين ليحمل كل فرد مسؤوليته أمام الله، فتراه يشرح ويفصل الأمور للسلطان العثماني حتى تكون الصورة واضحة أمامه آملاً أن يلبي الخليفة هذه الصرخة والاستغاثة المنبعثة من غرب بلاد الإسلام التي يعيث فيها العدو فسادا والمسلمون في خلافاتهم ونزاعاتهم منشغلون . ويضيف عبدالقادر موضحا الموقف وكيف أن الأحداث تسارع متكاثفة ومجتمعة ضده، فيخبر الخليفة عن خذلان إخوانه له في الدين والجوار وكيف هان عليهم فأسلموه ومن معه إلى عدو لا يرحم، ولم تشفع لديهم صلة الرحم ولا المصير المهين الذي ينتظر هذا الشعب، فقد أمسى الأمير بين فكي كماشة: عدو لا يرحم وأخ جاهل متخاذل جبان غدر بإخوانه ابتغاء مرضاة الكافر يقول الأمير: " ونحن أسلمنا إخواننا المسلمون وتركونا أسارى في يد العدو فهم لنا ظالمون وتبرأ منا من كان قريبا لنا من الملوك ومنعونا شراء ما نتقوى به على الكافر خوفا منه ومنعونا حتى السلوك . طلبنا منهم الإعانة بالرجال فلم يقبلوا واستعناهم بالأموال فلم يفعلوا، وطلبنا منهم السلف فكان عين المحال، ، ومنعوا رعاياهم من إعانتنا بكل وجه وحال، فما نفعنا قريب ولا مجاور ولا دافع عنا ذو سيف

ولا محاور كأن المسلمين ليسوا بجسد واحد[٦٧٩] . وبعد هذا العرض المؤسف والمحزن لما آل اليه حال الأمير وشعبه وهم يصارعون الأعداء من كل جانب زاد مرارته ظلم ذوي القربي لأنه أتاه من حيث لم يكن يحتسب، فبدل أن يكون هؤلاء الإخوة يدا واحدة في السراء والضراء تراهم شيعاً متفرقة، ذهبت ريحهم ووهنت قوتهم تحسبهم واحداً وقلوبهم شتى أمام أعدائهم الذين حفزهم هذا المصير المخزي الذي صار اليه حال المسلمين في المضي قدما في طغيانهم وعداوتهم، وكأني بالأمير من خلال العرض الوافي يأمل أن يجد عند الخليفة ما افتقده عند جيرانه من عون ومدد، فيحقق أمل الشعب فيه لأنه لم يبق لهم من أمل سواه فليبادر بما أفاء الله عليه إنقاذا لرعيته من هذا المصير المشؤوم: " فالمسلمون بهذا القطر لا ينظرون من غيرك افراج ولا لهم ملجأ يلجؤون إليه غير حصنك العالي الأدراج فأبصارهم لإعانتك وإمدادك طامعة وقلوبهم بمحبتك وذكرك طافحة، فإن قيل: مال، عندك المال الوافر وإن قيل، جيش، عندك العسكر البحر، وإني وحياتك السعيدة لولا خوفي على المسلمين من العدو مالزمت سكوناً ولا هدوءاً حتى أقف بين يديك وأقص من أخبار المسلمين بهذا القطر عليك، فإنهم قد غلقت عليم الأبواب وتقطعت بهم الحبال والاسباب[٦٨٠] . ويختتم عبدالقادر رسالته وهو يؤمل النفس بقرب الفرج ودنو ساعة الخلاص حين تأتيه نجدات السلطان – الذي لم يبق له الأمير عذرا – ليرفع البلاء عن هذا الشعب ليستعيد قوته ليواجه عدوه نداً للند، داعياً للخليفة بالتوفيق والسداد، وأن يكون عند حسن ظن أبناء الجزائر لأنه مسؤول منهم بحكم سلطانه على المسلمين معتذراً عن عدم قدرته على ارسال هدية تليق بالسلطان لظروف الجهاد، فكل الإمكانات قد سخرت لهذا الهدف المقدس، وأن هديته الحقيقية للسلطان العثماني هي استعادة هذه القطعة من الوطن الإسلامي وعودتها إلى حظيرة الإسلام، يقول عبدالقادر: " فإنك ألغيت المدرار، والبحر الزخار،

وحضرتكم حضرة إغاثة اللهفاء وزوال الظمأ ومشاهدة طلعتكم تزيل العناء والغم، وإنا من عيالك، والله سائلك عنا، فأزل ما أثقل الظهر منا وعنا، ومرادنا نبعث لحضرة سيدنا هدية مع من يقوم مقامنا في تقبيل يدك الكريمة، ولكن من كثرة الحروب لم يتيسر لنا ذاك، والله المسؤول في تبليغ مرادنا فيما هناك". (٦٨١)

ومن الرسائل التي تبادلها عبدالقادر مع حكام بني عثمان، رسالته إلى الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا طالبا العون والمساعدة مصوراً ما آل إليه حال البلاد والعباد تحت نير الاستعمار الفرنسي البغيض، ذلك أن عبدالقادر لم يخرج -فيما ذهب إليه- من طلب الإعانة لأنه يرى أن هذا الأمر واجب يفرضه الدين والشرع على المسلم نحو أخيه المسلم.

يفتتح عبدالقادر رسالته بعد التحية والثناء على خصال الصدر الأعظم بقوله: «إن هذا الكتاب من خديم حضرتكم المجاهدين بوطن الجزائر، التي صار لغرباء الكفر وأذياله جزائر، ولم تتفقده أسياده وحماته، وتغافلت عنه أنصاره وفرسانه وكماته، فهم أسرى العدو الكافر أسراً، يفعل فيهم ما يشاء ويحملهم أغلالاً وإصرا»(٦٨٢).

ثم يعرج الأمير بعد هذا العتاب الأخوي لحكام المسلمين ورعاياهم لمواقفهم التي لم ترق إلى مستوى الحدث، فإخوانهم في الدين يقتلون ويعذبون ويشردون من ديارهم انتهكت أعراضهم وديست كرامتهم، وإخوانهم في الدين يتابعون فصول هذه المأساة ولم يحركوا ساكنا ولم يهتز لهم أدنى شعور بل الأدهى، والأمر من ذلك أن بعضا منهم - سامحهم الله - كانوا عونا على إخوانهم فحرموهم المال وصادروا لهم السلاح وضيقوا عليهم الخناق فكان ظلم ذوي القربى أشد مرارة من ظلم العدو نفسه، وليس لهؤلاء عذر في هذا، وعلى الرغم من ذلك فإن أبناء هذا الوطن الشرفاء لم

ييأسوا ولم يحزنوا لأنهم يدركون أن الأوضاع ستتغير، وأن إخوانهم في الدين سينصرونهم ولو بعد حين، ولم يقطعوا بوادر الأمل وليست هذه الرسالة إلا دليلا على ذلك، يقول الأمير: " وإنا قد كاتبنا سيدنا فخر الزمان[٦٨٣] والمكان وسيد ملوك يكون أو كان، وطلبنا منه المدد بالعدة والعدد، وأخبرناه بأحوالنا وسردنا عليه بعض أهوالنا، فكن لنا بوجه الله ورسوله معينا واسقنا من زلالك ماء معيناً وأزل لهفاتنا وارحم ضعفنا"[٦٨٤] .

ويوضح عبدالقادر أنه ليس في حاجة إلى الجند والفرسان – فهم عنده من الكفاية مايزيد لأن كل فرد من هذا الشعب مجاهد مقاتل – ولكن تعوزه الذخيرة والعدة لينازل أعداءه بنفس الإمكانات فلا يفل الحديد إلا الحديد – والحمد لله– فهذا المطلب البسيط ليس بالمستحيل والصعب، وحين تلبي الخلافة هذا الرجاء فسيرى المسلمون من أفعال مجاهدي الجزائر ما تقر به أعينهم وتنشرح لهم صدورهم، فالصراع الدائر في الجزائر ليس صراعا بين شعب وشعب أو من أجل قطعة أرض وامتيازات، ولكنه صراع أزلي بين عقيدة وعقيدة، وبالتالي فقد حق العون ولزمت المساعدة، وكيف لا ؟ وأبناء هذه البلاد هم جزء من الخلافة الإسلامية الجامعة ومسؤولية مساعدتهم والدفاع عنهم موكولة لأولي الأمر فيها، لأنهم سيسألون يوما عما فرطوا في هذا الأمر، فكل راع مسؤول عن رعيته كما ورد في الأثر، يقول عبدالقادر: " فإن العساكر وافرة والجزائر عامرة، ونحن من عيالكم فتعلقنا بأذيالكم فأدركونا قبل فوات الأوان بمددكم قبل الوفاة وصلوا فيها بفضلكم رحم الإسلام وراعوا فينا وجه النبي عليه الصلاة والسلام، فإنه ليس للمسلمين غير حصنكم يلجؤون إليه وأنتم المكلفون بالإسلام، وليس هنا

أحد لك تتكلون في هذا الأمر عليه[٦٨٥] والله سائلكم عن أمثالنا الضعفاء، وأنتم ملجأ الهاربين سلفاً وخلفاً وإن أكف خدامكم المجاهدين لاستمطار فضلكم، وحاشى وجودكم وكرمكم أن ترجع بالحرمان مردودة .[٦٨٦]

ويعتذر عبدالقادر مرة أخرى للصدر الأعظم في ختام رسالته عن عدم قدرته على إرسال هدية تليق بالمقام لظروف الحرب التي تتطلب كل جهد ومال، ولكن أمله في بلوغ مرامه كبير: " ومرادنا أن نبعث هدية لحضرتكم العلية ونبعث من يقوم مقامنا في تقبيل يدكم الكريمة الندية، ومن ترادف الحروب علينا لم يتيسر لنا ذلك، والله المرغوب في تبليغ مرادنا فيما هنالك"[٦٨٧]

أما رسائله إلى دايات تونس فقد كانت تدور أساسا حول علاقات المهاجرين الجزائريين بالسلطات التونسية، ورجاء الأمير بأن يتواصوا بهم خيراً باسم الأخوة والدين، خاصة وأن هؤلاء المهاجرين قد أخرجوا من ديارهم وسلبت أموالهم فلم يبق لهم من حطام الدنيا شيء، فروا بدينهم إلى إخوانهم علهم يجدون عندهم ما يعوضهم عما فقدوه، ولذلك سعى الأمير – مستخدماً جاهه العريض وسمعته الطيبة– في خدمة أبناء الجزائر الذين فضلوا الاغتراب عن كراهية . فكان الأمير يتدخل لدى رجال الدولة من أجل طمأنة الجزائريين الذين أموا البلاد التونسية فيقبل حكام تونس وساطته ويستجيبون لطلباته ويفسحون المجال أمام إخوانه المهاجرين بما جبلت عليه قلوب التونسيين من حب وأخوة ورحمة .

ففي إحدى رسائله يخاطب الوزير " مصطفى خزندار" في شأن قرابة له من جهة

الأم هاجروا إلى تونس آملا أن تمنحهم السلطات التونسية أرضًا زراعية يعيشون منها، فيلجأ عبدالقادر إلى ديباجة رسالته بأفخم الألقاب وأسمى المراتب داعيا للوزير بدوام العز ولتونس بالخير واليسر.

يقول الأمير بعد حمد الله والصلاة على رسوله: " السيادة العلية أدام الله توفيقها، وجعل العزة والإقبال على الدوام رفيقها، ولا حط لها من المجد رواقاً، ولا أذوى لها دوحة ولا أوراقاً، سيادة السيد مصطفى خزندار[٦٨٨] ".

ويلج الأمير إلى غرضه الأساسي بعد هذه المقدمة وبدعوة الوزير إلى إكرام وفادة هؤلاء المهاجرين واعتبارهم من جملة مواطني البلاد التونسية لأن الأمير كان يرى أن بلاد المسلمين وطن للجميع، وللجميع الحق في العيش في أي بقعة تظللها راية الإسلام: " فإن لي قرابة من جهة الأم هاجروا إلى تونس وهم من الأشراف والعلماء الفقراء فنطلب من سيادتكم أن تشملهم رحمتكم وعنايتكم كما هي عاداتكم وتنظرون لهم أرضا يعيشون بزراعتها ويستقرون بها كسائر الرعايا ولكم الأجر والشكر من الداعي بالخير ولسائر أمراء الملة المحمدية[٦٨٩] ."

وهكذا لم يستطرد الأمير كثيرا في رسالته هذه كما عهدناه من قبل، فقد أحسن التصرف وجعل لكل مقام مقال، ذلك أن الهدف الاساسي من رسالته كان محددا وهو الاهتمام بالجزائريين المهاجرين إلى تونس، وقد لعبت هذه الرسالة وغيرها دورا في تسهيل فرص العيش الكريم للجزائريين في تونس لما كان يحظى به الأمير من حب وتقدير من طرف الجميع لماضيه المشرف وحاضره النبيل الزاخر بالأعمال الجليلة التي

جعلها الأمير مطية لا لتحقيق أغراض شخصية، بل لخدمة أبناء وطنه في جميع الأقطار التي هاجروا إليها فراراً من العدو وبطشه.

وفي رسالة أخرى بعث بها إلى الوزير «مصطفى» حاثاً فيها هذا الأخير أن يستوصي خيراً بإخوانه شاكراً له أفعاله ومواقفه، حيث يستهل عبدالقادر رسالته بمدح صاحب الفضل فيبلغه أحر السلام ويكيل له أفضل النعوت والأوصاف فيستقي من جمال الطبيعة الأخاذة أجمل ما فيها ليشكل منها لوحة فنية يشع كل لون فيها بأسمى معاني الأخوة والمودة والمحبة.

يقول الأمير: "ماروض مفتر المباسم، معطر الرياح والنواسم، فداعب الربيع غصونه برود مخضرة، وجعل إشراقه للشمس ضره، وأزاهيره تتيه على كل الكواكب، وتختال في خلع الغمائم السواكب، بأبهى من إهداء سلام، وتحيات عظام ورفع أدعية، وبث أثنية[٦٩٠]".

ثم يصف الأمير مراسله بأنه أفضل وأكفأ من تحمل أعباء مسؤولية الوزارة وشؤون الدولة، فكان لها الرجل المناسب، ساس الأمور بحكمة واقتدار جعلت الرعية تتحدث عن مواقفه الكريمة، فعم الأمن والخير والرخاء في عهده ربوع البلاد التونسية لأن الله أراد بهذه الأمة خيراً، فلقد أمروها خيارها: "إلى حضرة سيادة من سبق في مضمار الوزارة الحلبة، وفرع من الإمارة الهضبة، ورفع الراية، وبلغ من الإحسان الغاية، فطارت مفاخره كل مطار، وتغنى بها راكب الفلك وهادي القطار، سعادة الوزير الأكبر والأمير الأشهر السيد مصطفى لا برحت الأيام بوجوده باسمة، ورياح إقباله بالمسرة ناسمة[٦٩١]".

ويفصح عبدالقادر بعد المقدمة عن الباعث الذي دفعه لتسطير هذه الرسالة وهو السعي دوما للمحافظة على الروابط الأخوية التي تجمعه وصاحبه والتي تزداد قوة ورسوخاً ممثلة في هذا الترحيب بالجزائريين النازحين إلى تونس والقيام بأمورهم أحسن قيام، حتى بلغت هذه المكارم مسامع الأمير فأثنى - كما سبق - على صاحبها شاكراً وده وعطفه مبيناً أن هذا العمل ليس بغريب عن الوزير مصطفى الذي اشتهر بمثل هذه المواقف الكريمة، مما شجع عبدالقادر على المضي قدما في طلب المزيد من الإحسان لإخوانه: " فالباعث على تسطيرها، والحامل على وشيها وتحضيرها، المحافظة على المودة والوفاء بحيث لا يكدر من شرابها ما راق وصفا. . . . هذا وألسنة الأقارب والمهاجرين كافة بطرفكم لم تزل تلهج بخصالكم الحميدة، ومزاياكم العديدة التي جل قدرها، وسار مسيرة الشمس ذكرها، ولما تكرر ثناؤهم عليكم بالغيب إرسالا، كما هب صبا أوشمالا، وجب علينا أن نعلمكم بمكانهم من الانقطاع بجهتكم والتحيز إلى فئتكم وأن أذكرك بأحوالهم تذكرة حسنة لتعاملهم بمقتضاها المعاملة المستحسنة جريا على ما ألفوه من خصالكم وإحسانكم وإبقاءً لما تعودوه من إجمالكم وامتنانكم[٦٩٢] ".

وينهي عبدالقادر رسالته واصفاً هذا الموقف من صديقه الوزير بأنه من صميم ديننا الحنيف الذي يدعو إلى الأخوة والمحبة والتعاون، وهي بلا ريب من الأعمال المحببة إلى الله، ويرجو رجاءه أن ينال هذا الكريم جزاءه عند ربه بأحسن مما يأمل ويدعو له بالخير واليمن بقوله: " ولا شك أن هذا -عند الله تعالى- من الأعمال الصالحة السنية، والمساعي الناجحة البهية، وسيادتكم أبقاكم الله الموثوق بوفائه وشرفه، المسكون على برج أمنه وطرفه، ولن أزال العالم بحقكم ومقداركم المقيم على الدعاء لكم في أوقات الإجابة والأماكن المستطابة . ودمتم[٦٩٣] ".

وقد كانت علاقات الأمير بالسلطات التونسية جيدة، ولذا تعدت مثل هذه الرسائل إلى أمور أخرى، فمثلا حين أنجز الوزير خير الدين باشا تأليف " أقوم المسالك " بعث بنسخة منه إلى الأمير، فأجاب شاكراً مهنئاً: " ورد علينا من حضرتكم كتاب سني يشتمل على خطاب لذيذ شهي، فاستدعى شكري وحمدي، واستخلص من صفاء المودة ما عندي، عرفتمونا فيه من خير سلامتكم ما نرجو له الدوام وندعو له بالحفظ من حوادث الأيام[٦٩٤] " . ثم يستطرد في وصف هذا المؤلف وكتابه، فيرى فيه الكمال والجودة لما أورده فيه صاحبه من المعلومات الجديدة العقلية والنقلية والأخبار النادرة التي تروي سير الأقدمين، فكان كتابه جامعاً مانعاً لما قبله، فلا ريب إذن أن يتخذه الأمير – على ما عرف عنه من حب للكتب – أنيساً وصاحباً يعتز بصداقته فأغناه عما سواه من التآليف الأخرى لقيمته: " وقد اطلعنا على " أقوم المسالك " فرأينا فيه ما بهر العقول وأدى الأفكار إلى الذهول من قضايا المعقول والمنقول، فاتفقت القلوب على تفضيله، واختلفت الألسنة في تمثيله، أما نحن فقد تركنا التشبيه، وقلنا ما له في فنه مثيل ولا شبيه، فقد أرانا من الرجال بقايا، وفي الزوايا خبايا، كتاب تنفس الدهر به تنفس الروض في الأسحار، وتبسم عن ثغور النور والأزهار، كتاب يزري بتاج تراجم الأعيان وكأنه مرآة انعكست فيه رسوم أخبار الملوك وأفاضل الزمان، فاتخذته موقع ناظري ومنتعش خاطري"[٦٩٥] . ويضيف عبدالقادر متحدثا عن هذا الكتاب وقيمته التي لا تخفى إلا على جاهل أو معاند، فصاحبه مشهود له بالباع الطويل في مختلف العلوم مما أهله إلى التصدى إلى قضايا هامة وخطيرة بكل ثقة وموضوعية، فتراه يجادل ويحاور ويدلل بالحجة والآية البينة، همه الوحيد توضيح القضايا وتصحيح المفاهيم فكانت أفكاره وردوده كأساً دهاقا، وكيف لا وهو يدافع عن ذمار الدين ويقطع عنه كل دابر شر يسعي لتشويهه مؤكدا أن هذا دستور أزلي وشرعاً أبدي صالحا لكل عصر

ومصر، وإذا كانت هناك سلبيات أو أخطاء فمرجعها إلى المسلمين أنفسهم وليس لعقيدتهم فهي منهم ومن أخطائهم وانحرافهم عن الصراط القويم براء، وبذلك وجب الشكر وحق المديح لهذا الوزير وأمثاله الذين يندر أن يجود الزمان بأمثالهم: " وبالجملة فقد أبنتم في هذا التأليف من كلامكم العالي المنيف: ما يجب على كل عاقل أن يتخذه سميراً ويجعله على كل كلام أميرا - فقلد ابتدرت- أيها الوزير الخطير إلى إحراز المعاني وسبقت وحزت قصب السبق في مضمارها وفزت فلله درك ودر ما ألمحت وما قربت من فنون المعارف وبعدت ثم إنك حميت ضمار الشرع المحمدي، وعضدته وقطعت عنه ضرر الملحدين وخضدته، ولذلك بما قررتموه من أن الشريعة الطاهرة لائقة لكل زمان، صالحة للحكم بها في كل أوان، وذكرتم أن بعض من خالف الحكم المحمدي فتأخر، نسبت جنايته إليه، وما احتشم ولا تبصر، ولم يعلم ذلك المخذول أنه إنما أتي من قبل مخالفته، وأصيب في عين بصيرته من جهة إساءته: [٦٩٦]

والشمس إن تخفى على ذي مقلة

نصف النهار فذاك تحقيق العمى

وفي رسالة تالية لحكام تونس والتي أرسلها عبدالقادر للوزير خزندار بالنيابة عن كل المهاجرين رافعاً أكف الشكر والامتنان للحكومة التونسية على حسن وفادتها ورعايتها للجزائريين في تونس آملا أن تكون هذه الخطوة دافعاً لتمتين أواصر الأخوة والمحبة بين الأمير وهؤلاء .

يستهل عبدالقادر رسالته كعادته بعبارات تنم عن مودة وأخوة وما يحمله عبدالقادر من مشاعر صداقة للوزير الذي حاز بجوده وعلمه وكرمه أفضل أنواع المكارم وأسمى درجات المراتب التي لا يبلغها إلا القليل من الناس .

ثم يخلص الأمير إلى الغرض من رسالته موضحاً للوزير أنه وعلى الرغم من أن اللقاء قد تعذر بينهما فإن رسالته هذه " تقوم مقامه وتفيد مرامه في التعبير عن خالص وده والأنباء على استمرار كريم عهده[٦٩٧] " ولا ريب أن في هذا إشارة ودلالة على أهمية الكتابة في حياة الفرد وهي نظرة من الأمير العالم الذي جرب الأداتين : السيف والقلم فأعطى لكل جانب حقه ، بل إنه كثيرا ما يرجح مرتبة القلم ويفضلها على السيف ويعتبر كليهما سلاحا فتاكا ذا حدين لا يؤمن جانبهما .

ويستطرد عبدالقادر متحدثا في رسالته عن الباعث إلى تسطيرها وهو الذكر العطر الذي يتناقله الجزائريون عن معاملة إخوانهم لهم في تونس " ولما ورد علينا أقاربنا السيد" أحمد المكي" وإخوته راجعين من وجهتهم الحجازية إلى المواطن التونسية ، انتهزنا الفرصة فأصحبناهم كتابنا هذا قياماً بواجب صدق العهد ، واحتفالاً بمقتضيات الود . . . . وقد ورد علينا كتاب من عوض ولدنا السيد مصطفى بن السيد محمد الصغير العقبي مخبراً بما تفضلت عليه الدولة الفخيمة الصادقية بواسطة علم همتكم السنية المصطفوية من أنها ملكت له الأرض التي كانت أحسنت إليه باستغلالها[٦٩٨] " .

ويعترف الأمير بأن صديقه الوزير بصنيعه هذا قد ملك السبق والفضل فأصبح عبدالقادر له من الممنونين الشاكرين لهذا المعروف ، - والكريم إذا أكرمته ملكته - ، ضف إلى ذلك أن هذا العمل لا يقوم به إلا كل مسلم شريف كريم جواد يستهدى تراث الأجداد ، وسيرهم في معاملاته وتصرفاته ، ويعيد بذلك صفحة مشرقة من تاريخ الإسلام ونعني بها حسن استقبال أنصار رسول الله لمهاجري مكة وإيثارهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ، فكأن التاريخ يعيد نفسه في هذا ، ولذلك لم يجد الأمير إلا الدعاء للوزير بالخير والفلاح والابتهال إلى الله أن يجعله ذخراً وعوناً

لإخوانه المسلمين، يقول: " فبخ. بخ ذاك مال رابح وعمل صالح، فصرنا بسببه ألى جنابكم العالي من الممنونين ولحسن صنيعكم من الشاكرين، وكيف وقد تخلقتم بأخلاق الأنصار ووصفتم بما وصفوا به من الإيثار وحب المهاجرين، فنسال أن يمتع المسلمين بطول بقائكم ويوالي أسباب دوام عزكم وارتقائكم بمنه وفضله[٦٩٩] ".

ومن الرسائل الاخوانية التي تبادلها الأمير عبدالقادر مع بعض الشخصيات الإسلامية، رسالته التي رد بها على الشيخ شامل الداغستاني، حيث كانت تربط بين الرجلين صداقة عظيمة إذ جمعت بينهما صفات كثيرة من علم وثقافة وجهاد وبطولة وإيمان بالله فقد أسس كل واحد في وطنه دولة قوية، ووحدا صفوف الشعب ونظما الجيش وكانا محل الاحترام والتقدير من الصديق والعدو، وعلى الرغم من الحرب الضروس والشجاعة النادرة التي أبدياها، إلا أنهما اضطرا إلى إيقاف القتال تحت ظروف قاسية، فنفيا وسجنا " وقد اشتهر الرجلان في العالم الإسلامي كله بالمواقف الشريفة والبسالة الرفيعة والسيرة الحميدة[٧٠٠] ".

كتب الشيخ شامل رسالة إلى الأمير[٧٠١] بعد أحداث " الفتنة الطائفية في الشام[٧٠٢] "شاكراً مواقفه النبيلة الشجاعة حين تصدى لحماية مسيحيي الشام وأنقذ الآلاف منهم بدافع الدين والإنسانية، فأجابه الأمير برسالة بين له فيها أن ما قام به لا يعدو كونه امتثالاً لتعاليم الإسلام الداعية إلى حماية أهل الكتاب والتواصي بهم خيراً وإلى التسامح والرحمة، ونبذ الظلم والعنف والعدوان مهما كان مصدره ودافعه، فالإسلام دين رحمة وسلام وأمن وأمان.

يفتتح عبدالقادر رسالته بعد حمد الله والصلاة على رسوله- بعبارات تنم عن تواضع شديد نابع من أخلاقه السامية- فيخاطب صديقه شامل بكلمات تعبق محبة

وأخوة في الله ويدعو لنفسه وله بأفضل ما ورد في الأثر بقوله: " إنه من الفقير إلى مولاه الغني عبدالقادر بن محيي الدين الحسيني الأخ في الله – تعالى– والمحب من أجله الإمام شامل كان الله لنا ولكم في المقام والرحيل[٧٠٣] " .

ويؤكد عبدالقادر لصديقه أن ما قام به من أعمال، وما اتخذه من مواقف أثناء حصول فتنة الشام لا يخرج عن كونه امتثالا لأوامر الشريعة السمحاء والمروءة والأخلاق الإنسانية ذلك أن الدين الحنيف يدعو إلى مكارم الأخلاق والنهي عن المنكر وإغاثة الملهوف، فالإسلام جامع للمحامد، موجب للمحبة والألفة، كاره للظلم والعدوان والبغي، وما جاء الإسلام إلا متمماً لما جاءت به الملل الأخرى، وفي هذا يقول عبدالقادر: " والذي بلغكم عنا، ورضيتم به منا من حماية أهل الذمة والعهد، والذب عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد هو – كما في كريم علمكم– مقتضى الشريعة السنية والمروءة الإنسانية، فإن شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق فهي مشتملة على جميع المحامد، الموجبة للإتلاف اشتمال جميع الأطواق على الأعناق، والبغي في كل الملل مذموم، ومرتعه وخيم، ومرتكبه ملوم، ولكن:

يُقضَى على المرء في أيام محنته

حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن[٧٠٤]

ويوضح الأمير– بكل ألم وحسرة – أن السبب في حصول هذا الأمر مرده إلى ابتعاد المسلمين عن مبادئ دينهم الحنيف، والميل عن سواء السبيل حتى ظن الذين يجهلون الإسلام أن هذا الدين شعاره القسوة والشدة وسفك الدماء، والإسلام بعيد عن هذا بعد السماء عن الأرض فجنى هؤلاء السفهاء على دينهم فلوثوه ولطخوا صفحاته المشرقة بأعمالهم الطائشة، ولكن ما العمل؟ فقد اشتد البأس وعم الشر فلم

تبق إلا الاستعانة بالصبر الجميل وطلب العون والهداية من الله، يقول الأمير: " فإنا لله وإنا إليه راجعون على فقد أهل الدين وقلة الناصر للحق والمعين، حتى صار يظن من لا علم لـه أن أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبلادة والجفوة، فصبر جميل والله المستعان[٧٠٥] ".

وتمنى عبدالقادر في رسالته لشامل أن تأذن له السلطات الروسية بالسفر والهجرة إلى الحجاز، خاصة وأنه قد بلغ من الكبر عتيا، زارعاً في نفس الشيخ الأمل الذي لم يفقده الأمير نفسه في يوم من الايام، راجياً له نهاية سعيدة لأسره كالتي آل إليها حال الأمير، مؤكداً له أن الإمبراطور الروسي سيحقق له هذا الأمل – إن شاء الله – لما عرف عنه من خصال كريمة على أن الرجاء الحقيقي بيد الله فله مقاليد الأمور، ولا ييأس من رحمة الله إلا الكافرون، والشيخ شامل مؤمن محتسب، يقول الأمير: " ومنذ زمان بلغنا وصولكم عند ملك روسيا وأنه فعل معكم ماهو أهله من الإحسان وأنزلكم من الإكرام أرفع منزل ومكان، وسمعنا أنكم طلبتم تسريحكم إلى الحرمين الشرفين، فنسأل الله أن يجيب مطلوبكم وينيلكم مرغوبكم . . . . وامبراطور روسيا من أعظم ملوك الارض شأناً وأحرصهم على تخليد المفاخر في بطون الدفاتر، فنرجو لكم من حضرته الفخيمة حصول الأرب بلا نصب ولا تعب، كما فعل معنا الإمبراطور نابليون الثالث، فإنه فعل معنا من سني الأفعال ما لم يخطر لأحد في بال، والمرجو– في الحقيقة– هو الله المعبود ولا معبود سواه[٧٠٦] ".

ومن رسائل الأمير كذلك كتابه الذي بعثه إلى علماء المغرب الأقصى أثناء جهاده وإنشاء إمارته الفتية التي تستلزم الحزم والثبات، لذلك كان الأمير" يعاقب من يقع في

أيدي ضبط الثغور من أشقياء المتنصرة كالدوائر والزمالة والبرجية وغيرهم . . . ممن يواصل العدو ويتسلل إلى تجمعاته بما اختلسه من المسلمين من عروض وماشية بما دون القتل إلا من تحقق ضرره للمسلمين، فكان يأمر بقتله، ثم بدا له أن يستفتي المحققين من علماء مصر وفاس في شأنهم وفي شأن مانعي الزكاة والإعانة التي افترضها للقيام بأمر الجهاد وغير ذلك مما اضطره الحال إلى السؤال عنه تأكيدا لحجته وتوطيدا لمحجته[٧٠٧] " .

واستطاع الأمير حقا عن طريق هذه الرسالة البليغة أن يبلغ أمره إلى هؤلاء العلماء بأسلوب ينم عن شخصية عالمة بما فيها من بحث عن الحقيقة وتواضع لأهل العلم وأعلامه وهي صفة ظلت ملازمة لعبدالقادر طوال حياته – كما أشرنا سابقا– .

استهل عبدالقادر رسالته بالدعاء لهؤلاء العلماء العاملين بالحفظ والرعاية ليظلوا دوما أكاليل الهداية تنير للناس سواء السبيل بعلمهم واجتهادهم، وذلك أن علماء الأمة هم قادتها وخلفاء وورثة الأنبياء فيها فوجبت الطاعة والاحترام .

ثم يلج الأمير إلى غرضه الأساسي لرسالته، فيبين لهؤلاء العلماء ويصور لهم الحالة التي آل إليها الوضع في الإمارة من جراء تصرفات بعض القبائل والرعية المنافية لتعاليم الإسلام، والتي تهدد أمن واستقرار الإمارة الفتية وتقف حجر عثرة أمام أداء رسالة الأمير في الدفاع عن ذرى الدين والوطن حماية للأنفس والأعراض التي استباحها العدو تساعده في عمله هذا بعض العناصر العميلة التي ارتضت لنفسها سبيل الخيانة والغدر، فكانت على الأمير أشد خطورة وأذى من العدو نفسه، فلا يجد أماها إلا الصبر وكم حاول أن يتبين ويكتشف هذه العناصر الخائنة ولكن –وللأسف الشديد– كان الفشل دوما حليفه، فالجميع ينكر وينفي علاقته بفرنسا رغم ثبوت الأدلة فيخاطب

هؤلاء العلماء بكل حسرة حيث يقول: " جوابكم أبقاكم الله في ما عظم به الخطب واشتد به الكرب في وطن الجزائر الذي صار لغربان الكفر مجازر، وذلك أن عدو الدين يحاول ملك المسلمين واسترقاقهم آونة بالسيف وتارة بشبكات السياسة، ومن المسلمين من يداخلهم ويتابعهم ويجلب لهم المواشي وجياد الخيل وغيرها من أنواع الكراع، ولا يخلو أمرهم من دلالتهم على عورات المسلمين، ومن القبائل من يفعل ذلك، فإذا طولبوا بتعيين المرتكبين منهم جعجعوا وتمالؤوا على الكذب والإنكار مع أنهم يعرفون منهم العين والأثر، فما حكم الله في الفريقين أنفسهم وأموالهم[٧٠٨] ".

أما النقطة الثانية التي يستفتي فيها عبدالقادر علماء فاس فهي لا تقل خطورة عن سابقتها لتأثيرها السلبي على حركة الجهاد المقدس الذي يخوضه الأمير وجنده، حيث يؤكد الامير أن بعض القبائل والأفراد الذين تتوافر فيهم جميع الشروط يتخلفون عن تلبية نداء الجهاد دون عذر حين يدعوهم داعي الأمير للاستنفار، فمنهم من يتخلف ويتثاقل، ومنهم من يجاهر بالرفض وعصيان الأوامر ناسين أن العدو يستهدفهم جميعا، وأن البلاء سيعمهم إن آجلا أو عاجلا يقول الأمير: " وما حكم فيمن يتخلف عن المدافعة إذا استنفر الإمام أو نائبه الناس للدفاع عن الدين والوطن فهل يعاقبون على ذلك وبأي شيء يكون عقابهم؟ولا يتأتى بغير قتالهم وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم[٧٠٩]".

ويمضي عبدالقادر في عرض أسئلته التي تفوح كلماتها مرارة وأسى لما انحدرت إليه نفوس بعض المسلمين بلغ بهم الأمر إلى أن امتنعوا عن أداء فرض من فرائض الإسلام وركنا من أركانه وهي الزكاة التي فرضها الله على أمته رحمة بهم وسبيلا للتعاون والتكاتف على الرغم من وجوبها شرعاً على هذه القبائل التي تدعي الفقر

والعوز . وهنا يتساءل الأمير عن مصير إمارته وجيشه إذا امتنع المسلمون عن تطبيق هذا الركن باعتباره المورد الأساسي لتمويل خزانة الدولة التي تفتقر إلى كل مقومات ودعائم الدولة الحقيقية فهي في طور النشوء تواجه عدواً يملك من الإمكانات ما يجعله يتجرأ على مهاجمة البلاد.

وأمام هذا الأمر يطلب عبدالقادر من هؤلاء العلماء حكم الله في هذه القضية بكل تفاصيلها وجزئياتها حتى يرى أمره على ضوء هذه الفتوى: " وما حكم الله فيمن يمتنع عن دفع الزكاة كلاً أو بعضاً لدعوى عدم وجوب نصابها عنده مع تحقق وجوده في الحال؟ فهل يصدق في دعواه مع ضعف الدين في هذا الزمن أن يكون للاجتهاد فيه مجال؟ ومن أين يرتزق الجيش المدافع عن المسلمين الساد لثغورهم من إغارة العدو ولابيت مال موجود منظم الآن، والذي يجمع من الزكاة لا يفي بقوتهم فضلا عن كسوتهم وسلاحهم وخيلهم ولوازم مؤونتهم، فهل يترك الأمر فيستبيح العدو الوطن؟ أم يكونوا ممن يلزمهم على جماعة المسلمين ؟ وإذا كان فهل على العموم ؟ أم على الأغنياء فقط؟ وهل يعد مانع المعونة باغياً أم لا؟ وما حكم أموال البغاة وهو القول بعدم ردها يجوز العمل به أم لا؟[٧١٠].

ويختتم الأمير رسالته بدعوة هؤلاء العلماء الأفاضل إلى الإجابة عن أسئلته التي يتوقف عليها كيان الشعب ومصير الأمة، ولهم في كل ذلك جزاء الله لأنهم بذلك يسهمون لا محالة في فصل الأمر في أخطر القضايا التي تواجه عبدالقادر الأمير وإمارته، وتفسح السبيل أمامه لتطبيق شرع الله في أرضه على هؤلاء المارقين المفسدين الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا، يقول عبدالقادر: " أجيبوا أبقاكم الله -عما ذكرنا وعما يناسب المقام والحال- مأجورين والسلام عليكم بدءاً وعوداً[٧١١] " .

وإلى جانب رسائل الأمير الاخوانية التي تبادلها مع إخوته في الدين والمصير من رعـايا وقـبـائـل وحكام وشخصيـات، نـجد له مراسلات عـديـدة مع بعض الحكام والشخصيات الغربية الأوربية تباينت مضامينها فهي تارة مراسلات سياسية تتعلق بشؤون الحرب والمعاهدات، وتارة أخرى تخص بعض القضايا التي تمس علاقات الأمير وإمارته مع بعض هذه الدول، من طلب للعون والعتاد، والتدخل لدى فرنسا لوقف عدوانها، وثالثة تدور حول بعض الأمور والمسائل الفكرية التي كانت تجري بين الأمير وبعض علماء الغرب، فهي أشبه ما تكون بالمحاورات أو المناظرات، يرد فيها عبدالقادر على استفسارات وأسئلة علماء وحكام فرنسا بشأن بعض القضايا والمعاملات في الإسلام . و الحقيقة أن الدارس لهذه الرسائل يكتشف أن عبدالقادر مفاوض قدير ودبلوماسي محنك من الطراز الأول، خاصة وأنه تصدى لمسائل تمس وطنه أو عقيدته، ولذلك فهو يسخر كل مايملك من براهين وأدلة وحكمة ويعطي كل مقام ما يلزمه من صنوف الكلام، لأنه يعلم أن هذه المراسلات جزء من جهاده ودفاعه عن الدين والأمة، ولافرق عنده بين أن يجابه عدوه بسلاحه فيوظف السيف مقام السيف ويستخدم القلم في مجاله الخاص به، ومن هنا ذهب عبدالقادر يخوض هذا المجال بثقة واقتدار كبيرين، يدافع عن آرائه ويرد على الأقاويل والافتراءات ويدحض حجج خصومه بما اكتسبه من ثقافة عالية وموروث ضخم، فنراه يعود في حديثه عن مسائل الدين إلى الكتب المقدسة ليرد بها عن سائليه "والحق أن ردود عبدالقادر كأس دهاق من المعارف، مزاجها فروسية الفكر وطفولة الصدق، بصرف النظر عما سوف يعده خطأ في مقاييسه وأيا ما قيل فان عبدالقادر واجه الاصطلاء بتلك الظاهرة

الحضارية متى تتجلى فيه المباريات الفكرية والسياسية والحضارية، ووقف منها موقفاً رائداً وممهداً وأجال النظر، والتمس الدليل المعقول والتعليل المقبول لكل ما يقول دون توقف أو خوف كأنه – بل لأنه – مازال في ميدان حرب عوان بين ثقافتين جد متصارعتين[٧١٢] "

وقد اخترنا نماذج من هذه الرسائل لدراستها وتحليلها حتى نقف على ما كان يتمتع به الأمير عبدالقادر من شخصية قوية وحنكة سياسية " ومذهب قوي في أدب الحوار، وأدب النقد، وأدب الخصومة والمعارضة[٧١٣]" . وسيتبين لنا ذلك جليا من خلال استقراء واستعراض هذه النماذج موضوعياً وفنياً. وقد دارت رسائل الأمير– هنا– حول نقاط محددة تخص رد الأسرى والفارين من الطرفين، والمفاوضات من أجل إبرام المعاهدات وما يترتب عليها مع التأكيد على الالتزام بالعهود والمواثيق .

ففيما يخص الأسرى الفرنسيين، وانضواء بعض رعايا الأمير تحت لواء العدو، فقد تبادل الأمير الرسائل مع قواد فرنسا وخاصة الجنرال دميشال الذي نال نصيب الأسد من مراسلات الأمير لوجوده على رأس القوة المعتدية أثناء هذه الفترة .

ففي النموذج الأول وهو عبارة عن رسالة وجهها عبدالقادر إلى الجنرال جواباً على رسالة هذا الأخير بشأن افتداء بعض الأسرى الفرنسيين الذين وقعوا في أيدي جند الأمير وبعض القبائل التي فضلت حياة الخزي والذل واستساغت طعمه بما فيه من مرارة، نرى الأمير يختلف في صياغتها عما عهدناه في رسائله السابقة، فلا مجال للعبارات الأخوية ولا للثناء والمديح والود، وإنما التزم فيها أسلوباً يكشف عن دبلوماسية رجل دولة لها من السيادة والكرامة ما يجعله يخاطب غيره على قدم المساواة . وقد أورد صاحب تحفة الزائر رسائل كثيرة كانت متبادلة بين الأمير وبعض هذه

الشخصيات الأوربية، اقتطفنا منها بعض النماذج لدراستها وبيان مدى اختلافها عن رسائله الإخوانية السابقة .

ففي رسالته الأولى المشار اليها والتي تخلو من عبارات المجاملة والتحيات والتي يستهلها بقوله : "من عبدالقادر بن محي الدين إلى الجنرال دي ميشيل[٧١٤] " يدخل الأمير مباشرة في الحديث عن هدفه الرئيسي من رسالته والخاص بموضوع الأسرى الفرنسيين، فيؤكد له بأن كتابه المتضمن رغبته فى الحصول على إطلاق سراح الجنود المعتقلين قد بلغه وأن هؤلاء الأسرى لا خوف عليهم لأنهم يعاملون معاملة حسنة تطبيقا لتعاليم الدين الاسلامي الذي يأمر بالإحسان إليهم، مضيفاً بأن هذا الموضوع ليس من الأهمية الكبرى بالنسبة له، ولكن ظروف الحرب فرضت عليه أن لايردهم إلا بفدية مناسبة تعين عبدالقادر على متطلبات الجهاد، ويدعو الجنرال إلى المساهمة في إطلاق سراح جنده إذا رغب في ذلك بإبداء النية الصادقة : "أما بعد : فقد وصلنا كتابكم المتضمن أفضل النصائح فقدرناها قدرها وعلمنا أنكم تحثوننا في كتبكم الثلاثة على الإفساح عن الأسرى وتندبون حظهم، مع أننا نعتني بشأنهم غاية الاعتناء، والإفساح عنهم ليس له أهمية لدينا غير أن الحالة التي نحن بها لا تسمح لنا أن نردهم بدون فدية فإذا رغبتم في الاتفاق أقبل تسليم الأسرى إليكم عند المعاهدة بيننا[٧١٥] . "

على أنه يوضح له نقطة هامة وهي أنه وتطبيقا لشريعة الاسلام فلن يكون البادئ بالصلح، ولكنه لن يرفضه اذا عرض عليه مصداقا لقوله تعالى : " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها – سورة الأنفال آية ٦١"، على أن يكون هذا السلم أو الصلح مبنيا على شروط محترمة تكفل لكل طرف حقه وكرامته، فيدعوه إلى عرض شروطه حتى يرى الأمير رأيه فيها، وهكذا يوضح عبدالقادر لعدوه أنه ليس بأقل منه حكمة وقدرة

وحنكة وتعامل مع الأحداث بقدر المستوى : " على أن ديننا يمنعنا عن طلب الصلح ويسمح لنا بقبوله إذا عرض علينا ، وان الثقة التي منحتونا إياها في تحاريركم حملتنا على أن نبدأكم بالمخابرة وأن المفاوضة التي تطلبونها تقتضي أن تكون مبنية على شروط محترمة منا ومنكم ، ولا يحصل الاتفاق الا اذا عرفتموني شروطكم وما تطلبونه مني ، وأنا أعرفكم بمثلها ، والله المعين[٧١٦] " . وبعد هذا العرض يبين عبدالقادر للجنرال ما يدحض حجته بالأدلة التاريخية رداً على مزاعمه الكاذبة موضحاً له أن القوة الإسلامية التي استخف بها هذا الأخير أمثاله واستضعفوها ، هي التي لقنت هذا الغرب الأوروبى دروساً فى البطولة والشجاعة والتضحية ، وإن كان في شك من هذا فليرجع إلى كتب التاريخ يتصفحها فسيجد الخبر اليقين ، وما الضعف الذي يعانيه المسلمون الآن إلا سحابة صيف ستنقشع بعد حين ، إذ كيف تضعف أمة وتهان وقوتها مستمدة من ربها الذي وصفها بأنها خير أمة أخرجت للناس ، صحيح أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء وأن الحرب سجال فيقتل المسلم ويُقتل ، وفي شهادته حياة وكرامة فلا غرو إذن أن يتنافس المسلمون في طلب هذه الشهادة ثقة في الله ونصره ، وما أعده لهم من النعيم والكرامة ، واذا كان غيرهم يتسابق لنيل زخرف الدنيا ومتاعها فإن أسمى ما في حياة المسلم رفع لواء الجهاد ودك صفوف الأعداء يطربون لعزف سنابك الخيل وتهزهم طبول النفير وطلقات الجهاد وهي الموسيقى التي يعشق سماعها المجاهد وتنتشي بألحانها أذناه .

وهكذا أوضح الأمير القائد لخصمه أنه أمام شعب لايعرف الخوف والهلع إلى نفسه سبيلا على الرغم من قلة عدده وعدته ، فعزاؤه الوحيد هو إيمانه بقضيته وثقته في الله ونصره ليعلم الجنرال وأمثاله أن قبول عبدالقادر للصلح كان من منطلق قوة الرغبة

في السلام وحقنا للدماء: " وكيف تفاخروني بقوة فرنسا ولاتقدرون القوة الإسلامية مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على قوة الإسلام وانتصاراتهم على أعدائهم ونحن-وإن كنا ضعفاء على زعمكم -فقوتنا بالله الذي لا إله الا هو ولا شريك له، ولا ندعي بأن الظفر مكتوب لنا دائما، بل نعلم أن الحرب سجال يوم لنا ويوم علينا، غير أن الموت مسر لنا وليس لنا ثقة إلا بالله وحده لا شريك له، لا بعدد عدة، وان دوي الرصاص وصهيل الخيل والحرب لآذاننا من الصوت الرخيم فاذا صممتم على عقد صلات اجابية دائمة بيننا وبينكم فأفيدونا حتى نرسل اليكم رجلين من كبار قومنا مأذونين بالمفاوضة معكم، تتم أمانيكم بمعونة الله[٧١٧] "

ويبين الأمير للجنرال أنه وجنده يعتبرون أرض الاسلام كلها وطناً لهم يعيشون فيها أعزة كراماً، فاذا ما أكرهوا يوما على ترك البلاد فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون، لأنهم سيجدون المأوى والملاذ في ديار إخوتهم فلن يضاروا أبدا .

ويكرر تحذيره للجنرال من سوء تقديره لقوة المسلمين لأن في ذلك إفراطاً في الغرور، ويحوله إلى دفاتر الماضي المجيد للمسلمين الذين ملكوا البر والبحر، وما الحضارة والتقدم الذي ترفل فيهما أوروبا حالياً إلا ثمار جهود ذلك السلف الصالح وأن مايراه الجنرال الآن من ضعف وانحطاط ماهي إلا كبوة ينهض بعدها المسلم جباراً عظيماً يعيد أمجاد الماضي التليد .

وإمعانا في إبراز الأمير لقوته فإنه يخبر خصمه بأنه كان مشغولا، فلم يتسن له الرد على كتابه ولا نظنها إلا وسيلة متعمدة من الأمير لاتخرج عن كونها إحدى وسائل الحرب والتأثير في العدو: "ولاتظنوا بأننا نأسف اذا اضطررنا إلى ترك البلاد، لأننا نعلم جميعا أن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده، وقد سلمنا الأرض وراثتها فحيث ما كنا نجد أمتنا، وقد ظهر لنا من مضمون كتابكم أنكم تحتقرون قوة العرب مع

دوام استعدادهم للقتال وسابقتهم للنزال في كل زمان ومكان، وإذا فتحتم التواريخ ما أجروه في آسيا وجهات الشام من الجراءة والثبات والإقدام والفتحات التي أظهرها الله على أيديهم، وإني أعتذر لعدم جوابي على كتابكم السابق بأني كنت مشغولا في الوقت الذي استلمته[٧١٨] . "

اما الرسالة الثانية والتي تدور حول نفس العرض فإن عبدالقادر ينهج فيها نفس السبيل الذي رأيناه فى رسالته الأولى، فلا مقدمات طويلة ولا ألفاظ وتراكيب تنم عن مودة وأخوة وإنما يلج فيها مباشرة للحديث عن الموضوع الأساسي فيخبر الجنرال دى ميشال بأنه تلقى رسائله العديدة بشأن هؤلاء الأسرى الذين رماهم سوء حظهم بين يدي قوات الأمير، والذي يلهث قائدهم أملا في إطلاق أسرهم مفتخراً – أي الأمير – بكونه لم يتصرف تصرف هذا القائد لأنه كان يقطع الرجاء والأمل في عودة أي مجاهد وقع أسيراً، بل يحتسبه عند ربه من الشهداء، غير أن الشيءالذي يتألم له عبدالقادرهو ذلك العذاب النفسي والجسدي الذي يتعرض لهما أسراه حين يقعون في أيدي أعدائهم، يقول في هذا: "بعد التحية، وصلني كتابك الذي أظهرت فيه رغبتك في الحصول على إطلاق الأسرى الذين أوقعتهم الأقدار الربانية بين يدي، وقد فهمت جميع ما تضمنته رسائلك وما اشتملت عليه من تكرار الطلب، ومن المعلوم عندكم أن جميع الأسرى الذين أوقعوا في يدي معسكركم في ميادين الحرب لم أتعرض لهم ولا لمن كان قبلكم في إطلاقهم، ولا أتعبت أفكاركم بمراسلة قط، لأن حكمهم عندي حكم الأموات، وموتهم أعتبره حياة لهم، غير أني كنت أتألم عليهم شفقة ورحمة[٧١٩] . "

ويرد عبدالقادر على الجنرال وهو يحاوره- بأن ما ذكره هذا الأخير – من أن هؤلاء الأسرى قد وقعوا في يد جيش الأمير وهم يدافعون عن أحد العرب كتبرير أو حجة كافية لإطلاق أسرهم، لايغني عنهم عند الأمير شيئا، فقد ضعف الطالب

والمطلوب، لأنهم بعملهم هذا قد حموا عميلاً لهم وذنباً من أذنابهم ارتضى لنفسه خدمة عدوه، فالأمير ومن معه بريئون منه ومن أمثاله، فقتال العدو وعملائه أمر واحد عند المجاهدين فلا يشفع للعربي جنسه إذا حاد عن سواء السبيل، فلا أمانة لمن لا دين له، وهؤلاء باعوا دينهم بدنياهم فحبطت أعمالهم، فلا يقيم لهم الأمير وشعبه يوماً وزناً، يقول الأمير: " وقولكم أن هؤلاء الأسرى الذين تطلبون إطلاق سراحهم، ما كان خروجهم لأمر يتعلق بكم، بل كانوا يحمون عربيا من انتقام أبناء وطنه وهذا لا أعتبره وسيلةلإطلاقهم فإن المحافظ والمحافظ عليه كلاهما أعداء لنا، وانتهاز الفرصة في الإنتقام منهم غاية مقصودي وسائر العرب الذين عندكم أوغاد وأراذل يجهلون واجباتهم الدينية[٧٢٠] " .

ويلمح الأمير لقائد جيش العدو، قصر نظره وفساد تفكيره حين يؤكد له أن ماحسبه فخرا حين أطلق بعض الأسارى من العرب لا يساوي شيئا عنده، لأن الأمير يعلم بحنكته السياسية وخبرته أن ما أقدم عليه العدو لا يعدو كونه إلا مناورة، فما الأسرى الذين يتبجح الجينرال بفك أسرهم إلا عملاؤه وأتباعه الذين يدورون في فلكه باعوا ضمائرهم وشرفهم وملتهم بعرض الدنيا الزائل، فكانوا عونا للعدو على إخوانهم، وعلى الرغم من هذا فقد كانوا قليلا ما ينجون ويفلتون من بطش فرنسا، تأكيداً من عبدالقادر على أن العدو لا يؤمن جانبه البتة فهو لا يعرف غير مصالحه وامتيازاته، مستعد للتضحية بكل شيء في سبيل أهدافه حتى ولو كانت الضحية أقرب الناس إليه، فمثل هذه الأمور ليست بالخافية على الأمير لتعلم فرنسا أنها أمام رجل حرب وسياسة وأن كيدها سيرد إلى نحرها ولو بعد حين .

ويضيف عبدالقادر أن مثل هذا المعروف الذي يتشدق به العدو، لو كان مع غير هؤلاء العملاء الخونة لكان وقعه حسناً عند الأمير وشعبه ولاعتبره جميلا أو مبادرة

تكشف عن حسن نوايا فرنسا تساهم في إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين، ولكنه كان معروفا في غير أهله وبالتالي فالأمير ليس مسؤولا عن هؤلاء الرعاع الذين انتسبوا إلى العرب قولاً لا عملاً فلا فضل لفرنسا في شيء وإن أرادت الفخر حقا فما عليها إلا أن تخرج من قلاعها وحصونها، وعند التقاء الجمعان سيظهر من يستحق الفخر حقا كتحد صارخ من عبدالقادر لعدوه، وفي هذا يقول: " هذا وإني رأيتك تفتخر بأنك أطلقت الأسرى من "العزابة والزمالة" من غير شروط، مع أنك لو راجعت نفسك وأفكارك لوجدت أن رحمتك إنما كانت لأناس استظلوا بظلكم، واحتموا بحماكم، يملأون أسواقكم ذخائر ويكونون عيونا لكم على المسلمين، ويخدمونكم بكامل الصدق، ومع ذلك فإن عسكركم قد سلبوهم كل ما يملكونه، فلو كان هذا المعروف الذي تحججتم به مع غير هؤلاء كالحشم وبني عامر مثلا، لكان يحق لكم الافتخار وكنتم تستحقون الشكر، وعلى كل حال فمتى خرجتم من وهران على مسافة يوم أو يومين يظهر للعيان من يستحق الفخر منا[٧٢١] "

وفي رسالة الأمير التالية التي بعثها إلى نفس الجنرال الفرنسي تتجلى الأصالة الثورية تتحدى الأعداء بأمجادها التليدة ووفائها الأبدي، فإذا كان لوجوه الأعداء أن تتغير ولمعاهداتهم أن تنقض فإن مبادئ وإصرار الأمير لا يمسهما تبديل أو تغيير فيواجه الجنرال بما تكره نفسه ويحذره من أن يتهور ويتمادى في غروره مستخفا بقدرة الأمير وأمته على مواجهة العدوان، وماهذا الضعف الذي تعانيه الأمة الإسلامية الا ظرفاً عرضياً سيزول بعد حين وسيرى الذين ظلموا أي منقلب سينقلبون.

بعث الامير إلى الجنرال يقول: " الحمد لله وحده، من ناصر الدين عبدالقادر بن محيي الدين إلى المارشال بيجو، أما بعد: "فإن كانت دولة فرنسا ليس عندها من

الأرض ما يكفي رعاياها وأرسلتكم لتغصبوا أرضينا، وتبذلوا في ذلك نفوسكم وأموالكم فنحن نتخلى لها عن مافي أيدينا الآن من السواحل ونبقى معها في حال جيران ينتفع بعضهم من بعض، وأن أبت إلا أن تستولي على جميع وطننا فنحن نبذل وسعنا في مرافعتها وحماية أرضنا منها إلى أن يقضي الله بيننا وبينها بما شاء فإن البلاد بلاده والعبيد عبيده[٢٢٢]".

فعبدالقادر من خلال هذه المقدمة يدرك النوايا البعيدة لعدوه في الاستعمار والاستيطان، وأن هذا العدو لن يرضى ولن يقنع بما حصل عليه من امتيازات عن طريق القوة أو المعاهدات بل سيسعى حتما لتوسيع رقعة احتلاله، ومن هنا فالأمير وشعبه لن يقف موقف المتفرج وسيدافع عن أرضه وحرمته وسيترك الحكم للسيف حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا.

ثم يوضح عبدالقادر أن هذه الحرب التي تقع مسؤوليتها كاملة على فرنسا ليست بالسهولة التي كانت تظنها هذه الأخيرة وستصيبها نارها قبل الأمير فتزهق أرواح وتبدد أموال، وستواجه القوة الغازية من المقاومة والصمود ما يجعلها تندم على اليوم الذي فكرت فيه الإقدام على هذه المغامرة الوقحة.

ومادامت فرنسا هي البادئة بالعدوان، فلا جناح على الأمير إذن أن يقاومها دفاعا عن حق أمته وشعبه في البقاء والحياة، وأن يلتمس جميع السبل المتاحة لردع الظالمين تنفيذاً لأوامر الدين والشرع.

وهكذا يحمل عبدالقادر فرنسا كامل المسؤولية، وكل النتائج المترتبة عن هذه الحرب، مؤكداً على أن الشعارات التي ظلت فرنسا تتشدق بها من أخوة وعدل وحرية ماهي إلا ذر للرماد في الأعين يسخرها المستعمر لتحقيق مآربه وبلوغ أمله، وإنه مستعد

أن يضرب بهذه المبادئ عرض الحائط ويدوس عليها إذا ماتعارضت لحظة مع مصالحه : " ولا يخفى عليك أيها الحاكم – أن مهاجمتكم بلادنا ، كما أنها سبب لإتلاف الكثير من جنودكم وذخائركم فكذلك نحن ، وهذا الشيء لا يرضى به عاقل ، فضلاً عن فاضل ودولتكم تدعي أنها أول دولة في العلم تحب الإنصاف وتستعمله وتحافظ على ميزان العدل وتحكم به ، ففعلها هذا يكذب دعواها ويبطل مدعاها[٧٢٣] " .

ويضيف عبدالقادر لائماً هذا القائد وأمثاله من القادة لموقفهم السلبي من هذا العدوان الذي يتعرض له الشعب الجزائري ويدعوه إلى اتخاذ موقف حازم وشريف من هذه الحرب ، والوقوف ضدها لأنها حرب ظالمة لاتبقي ولا تذر ، ثم ما الفائدة المرجوة منها؟ ومن أين ستعوض الخسائر البشرية والمادية ، والكل في غنى عن مثل هذه الأمور إيمانا من عبدالقادر بحتمية التعايش السلمي بين الأمم ورداً على أولئك الذين يتهمون العرب والمسلمين بأنهم دعاة حرب ودم .

ثم يعرض الأمير بالجينرال وبسخرية لاذعة حين يدعوه إلى حمل تراب الجزائر وحجارتها وشحنها إلى فرنسا كتعويض عن خسائرها في هذه الحرب فلا شيء لدى عبدالقادر تستطيع فرنسا أن تغنمه كبديل عما فقدته في عدوانها .

ويحذر عبدالقادر فرنسا من أفعال وتصرفات جيشها الذي يسعى فسادا في الأرض بغير حق وينهب الديار والأموال وهو يحسب أن مثل هذه الأعمال ستجبر الأهالي على الرضوخ والاستسلام ، ولكن هيهات أن يخضع شعب آلى على نفسه أن يسلك درب الجهاد ولن يرده أو يثنيه عما وقر في نفسه أي تهديد ، فالجنرال وأمثاله قد علموا عن هذا الشعب شيئا وغابت عنهم أشياء ، ولم يدركوا بعد أن لهذا الشعب وسائله الخاصة التي يواجه بها مثل هذه الأعمال الإجرامية ليرد كيد العدو إلى نحره ، فالخير كثير والمخزون يسير ، وما يتلفه العدو منه كمن أخذ قدح ماء من البحر مدعيا أنه أنقص منه ، يقول الأمير : " وأنتم وغيركم من رجالها نراكم – دائما تساعدونها على

الاعتداء والاغتصاب. . . ولو كان عندكم أدنى نظر سديد ما وافقتموها على إتلاف جنودها في الحرب ومواسم الأمراض المختلفة التي لا تذر ولا تبقي، فياهل ترى (بأي شيء تعرضون ما تخسره بلادكم من الرجال والأموال والكراع ؟ فإن كان يرضيها منكم أن تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر أو من تراب الأرض التي اغتصبتموها فافعلوا (إنى أراك -أيهاالحاكم - تبذل جهدك في تعطيل مراسمنا لنقل الحبوب عندنا، ظنا منكم أن ذلك أقوى سبب لخضوع أهل البلاد إليكم، والحال أن هذا ليس بشئ عندهم، فإن هممهم ليست متعلقة بلذائذ الأطعمة والأشربة مثلكم، بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم ويقيم أودهم كيف ما كان، على أنه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها ما يكفيهم سبعة سنين آتية، وما تأخذونه أنتم من ذلك فهو جزء من جملة أجزاء، ولا أراكم في هذا الأمر إلا كمن ملأ قدحه من البحر معتقدا أنه ينقصه[٧٢٤] " .

وبثقة في النفس واعتزاز كبيرين يوضح عبدالقادر لهذا القائد أن حربه لن تنقطع وأن غصن الجهاد لن يذوي ويذبل وسترى فرنسا من آيات البطولة والشجاعة ما يجعلها تعمل لكل تصرف ألف حساب، ولن يترك المجاهدون عدوهم ينعم بالراحة التي كان يأملها، فهم وراءه ليذيقوه وبال أمره، لأن في الجهاد حياة لهؤلاء الناس، فقد تربوا عليه ورضعوه مع لبن أمهاتهم يسري في نفوسهم سريان الدم في العروق، وهذا الجهاد عند العرب عفوي لاتكلف فيه، يعرف فيه المجاهد متى يكر ويفر، ومتى يهاجم وينسحب يباغت عدوه أين وأنى شاء، بيده المبادرة، عكس جيش العدو الذي دفعت فرنسا في سبيل إعداده وتدريبه الأموال الطائلة، ولكن حين ينجلى النقع ويشتعل لهيب المعركة تراه يتراجع متقهقرا يجر قتلاه وجرحاه بكل خيبة وحسرة، فلم ينفعه تدريبه ولا سلاحه، يولي الأدبار بخزي وعار لأنه مدفوع إلى هذه المعركة دفعا يفتقد الإيمان بقضيته وعدالة حربه.

أما المجاهد فإن استنفر للجهاد فذلك يوم المنى ، يسير عليه ، مستبشرا بلقاء ربه يمني نفسه بإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وأي فوز أعظم من هذا ، ففرحته بالجهاد لا تعادلها إلا فرحة العريس ليلة عرسه .

ويؤكد الأمير لخصومه أن هؤلاء العرب لا يملون يوما الجهاد وقراع جحافل الظلم ولو امتدت الحرب لسنين طوال لأنهم مؤمنون إيمانا راسخا بعدالة قضيتهم مدركون أن الله معهم يؤيدهم بنصره لأنهم جنده وحزبه ، «ألا إن حزب الله هم الغالبون» ، يقول الأمير : " وبالجملة فنحن لا نترك قتالكم مادمتم في طغيانكم تعمهون ، وفي سبيل اعتدائكم تمشون ، والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبانها فنحن أهلها من المهد إلى اللحد ، وحروبنا – كما علمتم– لا نرجع فيها إلى قانون يحصرها بل نحن مخيرون مطلقون نصرفها كيف شئنا ، وأما أنتم فقد بذلتم أموالكم ، وأفنيتم قوة شبابكم في تعلم طرقها القولية ، وعند اشتباك الصفوف وتعاجلكم عن مراجعتها الرماح والسيوف . ومما علم من كتب التاريخ القديمة ، أن العرب يبتهجون في معامع القتال كما يبتهج العروس ليلة عرسه ، فلا يخطر في بالكم أنهم يضجرون منها أو يتركونها من ذات أنفسهم ، ما دامت الأقدار الإلهية مساعدة لهم ، فإن حكمت عليهم من غير ذلك فمن المعلوم أن الأرض لله من بعدهم يورثها من يشاء من عباده فلا معقب لحكمه ولا راد لقضائه[٧٢٥]" .

ولم تقتصر رسائل الأمير على الفرنسيين فحسب ، بل راسل حكام وملوك العالم الأخرين يدعو لقضيته ويطلب العون والمدد سالكا جميع الطرق وملتمسا كل الأسباب التي من شأنها أن تساهم في تدعيم موقفه ونصرة لجهاده العادل .

من هذه الرسائل ، تلك التي أرسلها إلى الملكة ايزابيلا الثانية ISABEL II ملكة اسبانيا يوضح لها فيها أنها تعلم بلا ريب ، ما يقترفه العدو الفرنسي في الجزائر من

جرائم، وبظروف إمارته الفتية التي تقود الجهاد على الرغم من عدم تكافؤ الفرص واختلال ميزان القوى بينها وبين فرنسا، ولذلك فهو يبدي رغبته ورجاءه في أن تتوسط هذه الملكة - لمكانتها ونفوذها - بينه وبين عدوه لإبرام معاهدة سلام تتوقف معها الحرب ونزيف الدم بين الطرفين. استهل الأمير رسالته بعد التحية بعبارة من (ملك المسلمين) ليظهر للعاهلة الإسبانية أنه لا يقل عنها شأنا ولا مرتبة فهو سلطان البلاد وحاكمها مفوضا من شعبه للتحدث باسمه وربط علاقات التعاون والود مع بقية الشعوب الأخرى، ثم يعرج للحديث عن فحوى رسالته فيذكر هذه الملكة أنها ليست في حاجة لمن يروي لها أخبار الجزائر وجهاد أبنائها ضد العدوان الفرنسي لأن الاسبان وملكتهم يعلمون جيدا الحالة التي عليها الأمير، فقد مروا بنفس الظروف وهم أدرى بالأمور من غيرهم، خاصة وأن هذا الصراع قد طال وأصبح قضية حياة أو موت للشعب الجزائري. يقول الأمير: " من ملك المسلمين عبدالقادر بن محيي الدين، إلى جلاله ملكة اسبانيا: من المسلم به لدى جميع الناس أن الإسبان أمة قوية وقديرة مشهورة بأعمالها الكبيرة، منذ أزمنة بعيدة، وبناء على وضعيتهم هذه بمقدورهم ملاحظة مقاومتنا ضد الفرنسيين، والوضعية التي أنزلونا إليها، وإذن ليس من الفائدة إطلاقا أن نحكي ونقص لجلالتكم تفاصيل هذه المقاومة، وما حدث ومضى منذ عدة سنوات بينهم وبيننا لأننا لا نشك بأنكم على علم بذلك مثلنا[٧٢٦] ".

ويتابع الأمير حديثه إلى الملكة ملفتاً انتباهها إلى بعض الأمور المحببة والمستحسنة التي ما انفك الناس - وخاصة كرامهم - يستنونها لغيرهم ويدعون إليها، فقد سجل التاريخ أعمالا جليلة قام بها عظماء لا زال الناس ينهجون بذكرها ويتخذونها قدوة تتمثل في السعي دوماً للصلح بين الشعوب والأمم لأن الصلح سيد الأحكام. ولن يتصدى للقيام بمثل هذا العمل إلا كرام الرجال، فتحقيق السلام وحسن الجوار والتعايش السلمي من أنبل المهام وأسماها والتي يسعي الجميع لبلوغها حفظا للأنفس

والأموال، لأن الجنوح للصلح والسلام هو الخير كل الخير، وكأن عبدالقادر يعلم أن مثل هذه الحقائق غير خافية على العائلة الإسبانية ولكنه يوردها لتدعم دعوته وتشجع هذه الأخيرة على التدخل لدى فرنسا لتحقيق المصالحة بينها وبين الأمير، وبذلك تضع اسمها في سجل الخالدين وتنال الفضل وتحوز من المنافع الأدبية والمادية لها لشعبها وأن جميلها هذا لن يذهب سدى وسيقدر لها عبدالقادر هذا الفضل ويثيبها على عملها بما تحبه نفسها وترضاه.

ويأمل الأمير في ختام رسالته أن تلقى دعوته قبولاً حسناً من الملكة فتصدر أوامرها إلى ممثلها في(مليلية) أن ييسر السبل أمام ممثلي عبدالقادر لتبقى أواصر التواصل بينه وبين إسبانيا قوية لما فيه خير الشعبين . يقول الأمير: " لقدجرت العادة بين الملوك منذ العصور القديمة أن يصلح الخلافات التي تنشب بين إخوانهم ويمنع الحرب بينهم كذلك، وهكذا إذن إذا اقتضيتم بهذا المثل الجميل وعملتم بحيث نعود إلى مملكتنا القديمة سنأذن لكم ونتعهد بأننا لا ننكر جميل مثل هذه الفوائد، ولكم أن تستفيدوا منا فيما تريدون، ونتمنى بشوق وحرارة أن تجيبونا عن هذه الرسالة، وفي نفس الوقت ترسلون أوامركم إلى الكولونيل حاكم (مليلية) بحيث كل مرة يحضر احد من طرفنا إلى هذه القلعة برسائل ولمعالجة مثل هذا الأمل يأذن له بالدخول[٧٢٧] " .

ولم يعدم الأمير أية وسيلة للاتصال بدول العالم – لعرض قضيته والتعريف بكفاح شعبه، وفضح ممارسات العدو وجرائمه لكسب تأييد الرأي العام وتعاطفه معه – إلا واستغلها في هذا المجال، ومن ذلك رسائله مع الحكومة البريطانية التي كان عبدالقادر يدرك تنافسها وصراعها مع فرنسا على مناطق النفوذ والسيطرة على المناطق الاستراتيجية في العالم، فحاول استغلال هذه النقطة لصالحه بأن عرض في بعض رسائله امتيازات لبريطانيا في مقابل تدخلها لدى فرنسا لوقف عدوانها وطلب العون والمساعدة، وذلك " بمنحها ميناء (تنس) وغيره لاستثماره مقابل حصوله على الأسلحة

والذخائر الحربية[٧٢٨] " . وقد بدأت هذه الاتصالات والمكاتبات بين الأمير عبدالقادر والحكومة الإنجليزية عن طريق قنصل هذه الأخيرة في طنجة " السيد دريموند هاي " الذي كتب إليه الامير رسالة يوضح فيها جوانب الصراع بينه وبين فرنسا ، وكيف أن العدو استباح أرضه وأتلف الحرث والنسل على الرغم من المعاهدات والمواثيق التي عقدت بين الأمير عبدالقادر وفرنسا . والتي لم يقم الاستعمار لها أي وزن أو اعتبار ، فهو ينتهز أية فرصة لنقضها مادامت تتعارض ومصالحه ، وهو ما يتنافى والأخلاقيات القتالية عند المسلمين الذين أمروا أن يوفوا بعهدهم إذا عاهدوا ، وظن العدو هذا الوفاء والالتزام بالعهود والمواثيق نتيجة ضعف وهوان فخرج بجيشه تسول له نفسه المساس بعبدالقادر ، وزين لهم الشيطان سوء فعلتهم واعتقدوا أنهم بمفاجأتهم هذه سيلحقون الهزيمة بالمسلمين ، ومكروا ويمكر الله والله خير الماكرين فذاقوا وبال أمرهم وكانت العاقبة عليهم فتفرقت جموعهم تجر أذيال الخيبة والهزيمة والعار ، وما كان الأمير ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . يقول الأمير : " لا يخفى عليك أننا كنا قد تعاقدنا مع جنس الفرنصيص تعاقدا وثيقا ، وتعاهدنا في الصلح والمهادنة على شروط منا ومنهم ووفينا لهم بجميع ما اشترطوه ، وبقينا على تمام الكلمة نحواً من السنة ثم ابتدأوا التخليط والتلبيس ، فخادعونا مراراً بنقض الميثاق ، ولم تختلف كلمتنا معهم في شيء إلى أن أدى بهم عملهم وطغيانهم لجمع جيوشهم وقوة حروبهم ، وخرجوا كفرانا غير مظهرين الشر ووكيلنا عندهم ، وقنصلهم عندنا وجيوشنا متفرقة ، بحيث شرع في نهب الحب ولما علمنا منه قصد الشر خرجنا بمن حضر من جنودنا ولاقيناه ، فنصرنا الله عليه وصار به ما بلغك من الخذلان والذل والقتال لما أتى به من الغدر والمخادعة[٧٢٩] " .

ويؤكد عبدالقادر على أن الدافع الذي جعله يراسل الإنجليز هو ما بلغه عنهم من وفاء للعهود وحباً للصدق وبعداً عن الغدر والخداع وأن قدوتهم في ملكهم الذي إذا

أعطى وعداً أنجزه وإذا عاهد وفَّى، وبالتالي فلا يخشى عبدالقادر التعامل معهم فيعرض عليهم بعض الامتيازات، يتفق عليها، وتضمن للطرفين مصالح تعود على الشعبين بالخير والنفع أساسها الاحترام والتعاون توطيدا لأواصر الود والألفة وعياً من الأمير بأن مثل هذه العروض تسيل لعاب الإنجليز وتدفعهم حتماً إلى اتخاذ مواقف منافسة لفرنسا تكون في صالح عبدالقادر: " ومضمون ما في المكتوب أنكم إذا أردتم المزية الطاهرة التي تفوزون بها على الأجناس وتمتازون بها عن غيركم، تلاقوننا في أي مرسى تريدونها من مراسي الجزائر، ونلتزم لكم من جانب البر أفضل ما التزمنا قبل الفرنصيص، وننزلكم في منزلة أعلى من منزلهم لكونهم خادعين، وأنتم لم تبلغنا عنكم خدعة، ولا شك أنكم لو أردتم منا هذا يحصل من المودة والألفة بيننا وبينكم مايسركم ويقويكم ويرفعكم على سائر الأجناس[٧٣٠] ".

وإلى جانب هذه الرسائل مع الفرنسيين والإنجليز، فقد كانت لعبدالقادر اتصالات أخرى مع ملك إيطاليا وحكومتها وكبار رجال الدولة فيها، وقد اخترت أحد النماذج من بين رسائل كثيرة كانت متبادلة بين الأمير والإيطاليين وهو عبارة عن رسالة تهنئة وتعزية بعثها عبدالقادر إلى الملك" همبرت" ملك أيطاليا معزيا في وفاة والده ومهنئاً بجلوسه على العرش .

يستهل عبدالقادر رسالته- بعد الديباجة- مبيناً لهذا الملك أن الإنسان لا حول ولا قوة له أمام قضاء الله وحكمته، وأن هذا الدهر لا يبقي على حدثانه، والدنيا بين إقبال وإدبار، تأخذ بيد ما منحته بأخرى، وبالتالي فلا يغتر بطيب العيش إنسان، لأن هذه هي نواميس الحياة والقاعدة العامة فيها، فحق على الإنسان أن يكون دوما مهيئاً ومستعداً لهذه التقلبات والتغيرات ويتكيف معها بحسب أحوالها. وبعد هذه العبارات التي تنم عن حكمة بالغة وخبرة واسعة بالحياة وشؤونها أرادها الأمير أن تكون توطئة لرسالته تبعث الصبر وتزرع الأمان في نفس العاهل الإيطالي ينتقل للحديث عن هذا

النبأ الفاجع ولكن بأسلوب حكيم استطاع من خلاله أن يغلب جانب التفاؤل والتهنئة على الجانب المأساوي المحزن، وأن يجعل الملك الجديد يهنأ بمنصبه ويستبشر خيرا، فيبين له الأمير أن وفاة والده كانت مؤثرة، ولكن عزاء الجميع هو أنه قد خلف من بعده من يملأ فراغه ويكمل مشوار أعماله الفاضلة الجليلة، ولذا فلا مكان للحزن والأسى داعياً له بالتوفيق والسداد، يقول: " ولا يخفى أن الأقدار الإلهية من شأنها أنها تختلف بين مكروه ومحبوب وتتصرف بين مسلوب وموهوب، وكثيرا ما أخذت بيد ثم ردته بأخرى، وأحزنت بكرة ثم أحدثت بالعشية سرورا أو بشرى، هذا وإن – حكم الله تعالى– بموت عظيم إيطاليا وملكها والدكم وإفضاء أمر الملك إليكم قد جمع بين ما يوجب الأسف والتعزية، وما يوجب المسرة والتهنئة، ولا شك أن – الله تعالى– أسا بكم حادث الكلم، وسد –بشخصكم العظيم –عظيم الثلم، ورد النفوس بعد – انزعاجها – إلى محالها، والآمال إلى قحط رحالها فلذلك ترى النفوس إلى التهنئة أميل منها إلى التعزية، إذ الموت لا بد منه وسهم لا محيد لكل مخلوق عنه، فالله يصلح بكم البلاد والعباد ويوفقكم إلى سبيل الرشد والسداد[٧٣١] . "

ويلفت عبدالقادر نظر الملك الإيطالي إلى أنه أصبح رمزاً لدولته، وأسرته فعليه أن يكون القدوة والمثل في تصرفاته ومعاملته وأن يسعى إلى تهوين هذا المصاب الجلل الذي ألم بالأوساط الملكية فيبدي من الشجاعة والصبر ما يليق بعظيم مثله لينهج غيره نهجه، فتهون المصيبة ويخف الخطب بفقد الملك الراحل وبالتالي يستطيع أداء مهامه على أكمل صورة، وأن لا يفتح للحزن والأسى قلبه حتى لا يصدأ أو يشغلانه عما أوكل إليه من جلائل الأعمال ويتفرغ لما فيه صالح البلاد والعباد مع رجاء الأمير أن يتقبل عزاءه وتهانيه: " ثم لا يخفى أن عيون العائلة الملوكية ترمقكم في هذه الحال لتسلك على سبيلكم وتأخذ بصبركم وتحملكم فينبغي لكم استعمال الوسائط اللازمة في تهوين ما نزل بها حتى تتفرغ إلى القيام بأعباء ما أسداه إليكم

الباري- تعالى- من الملك العظيم ثم أرجو قبول مااشتملت عليه هذا النميقة الوداية من التعزية والتهنئة[٧٣٢].

ولم تقتصر مكاتبات الأمير على هذه الجوانب فحسب بل نراه يستجيب لسائليه الذين دعوه إلى توضيح بعض القضايا والأمور التي تتعلق بعادات العرب والمسلمين وتقاليدهم في الزواج، ومعاملتهم للمرأة ومقارنة حال المرأة العربية بالأجنبية فقد رد الأمير على كل هذه الأسئلة موضحاً ومصححاً جملة من المفاهيم الخاطئة التي كانت ترسخ في أذهان الغربيين مستعينا في ذلك كله بالتوراة والإنجيل والشواهد الواقعية الحية.

وربما كانت هذه المسائل التي عالجها الأمير في ردوده موضحا فيها رأي الشرع، مجلياً حقائقها البعيدة عن الزيف والمسخ والتشويه" أول ماكتب من هذا القبيل بعد حدوث الاحتكاك بين المسلمين والأوربيين وتكوين هؤلاء صورة سطحية مشوبة بكثير من الخطأ والضلال عن المرأة المسلمة والنظم التي تخضع لها، ومكانها في المجتمع وقد صدروا بها عن مشاهدات خاطئة في بعض ماصارت إليه في العصور المتأخرة وفي البيئات المختلفة وتأثروا فيها بما هو كامل فيهم من عصبية على المسلمين، ومادفعت هذه العصبية من ازدراء وكراهية فعندهم- كما تعبر عنه هذه الأسئلة- أن الرجل لا يملك أن يرى خطيبته، وأن المهر الذي يقدمه لزوجته يجعل منها صورة من صور الملكية، ويجعلها بمثابة الأشياء التي تُشترى، ولا تشاركه في شيء من مهامه، وليس لها أن تدخل المسجد أو تنال شيئا من التأديب، إلى غير ذلك ما تصوروه فيها ووهموه من بعض أمورها، ورأوه في بعض النظم الإسلامية الخاصة بها كالطلاق وتعدد الزوجات"[٧٣٣].

وقد تصدى عبدالقادر محاولا تصحيح مثل هذه الصور الخاطئة المحرفة العالقة بأذهان الغربيين خاصتهم وعامتهم مجلياً وجه الحق والصواب في هذا الأمر" دون أن

ينفعل بموقف رجال الدين المسيحي منه، فقد كانت الروح العلمية هي الغالبة عليه، والنظرة الموضوعية هي الموجهة له، فلا محل للتعصب خاصة وأنه لا يضع الإسلام من الأديان الأخرى موضع الخصومة، فهو ليس إلا امتدادا للفكرة الدينية في اليهودية والمسيحية[٧٣٤]".

وقد أوردت رسالتين ردا من الأمير على سؤالين لنتبين من خلالهما ما كان يتمتع به عبدالقادر من قدرة فائقة على الحوار والمناظرة وماامتلكه من ثقافة واطلاع، وما كان يتميز به من أدب النقاش والحوار.

ففي رسالته الأولى التي رد بها على الجنرال (دوماس، DUMAS) عن سؤاله التالي الذي يظهر" أن غيرةالمسلمين زائدة حتى أن نساءهن لا يخرجن إلا متلحفات، ولا يظهرن إلا لأصدقاء أزواجهن وأقاربهن كابن العم وابن الخال مثلا، ونحن عندنا النساء يخرجن باديات الوجوه وبحضورهن مع الأحباب والأقارب يتم البسط ويحصل السرور وبذلك يعشن مع أزواجهن في دعة وهناء فكيف الأمر عندكم؟ وما الأفضل؟ عاداتنا أم عاداتكم"[٧٣٥] ؟. وينبري الأمير راداً على رسائله بثقة عالية واعتزاز بالنفس وبروح علمية وحجج وبينات من الموروث والمعارف بل تراه يسوق أمثلته من عادات الغرب ليرد بها على خصومه وليبين لهم ذلك الفرق بين حياة المسلمين وحياتهم.

يخبر الأمير هذا الجنرال السائل أن الغيرة عند المسلمين ليست بالصورة والمبالغة التي يتصورها هؤلاء، وإنما هي وسط، وإذا كانت كذلك فهي ممدوحة محمودة، فغيرة الرجل على أهله وشرفه وعرضه أمر موجب ولازم ولا يتوافر إلا في كرام الرجال وأشرافهم، لأنها سبب لحفظ الأنساب ودرء الشك والريب حماية للمجتمع وصونا لحقوق أفراده، ولذلك فلا غرو أن جعلها الله في الإنسان إكرام له ولآدميته، ويدلل الأمير على ذلك بأقوال الحكماء والأمثلة السائرة تأكيدا لما يذهب إليه يقول في هذا:"

إن غيرة المسلمين ليست بزائدة وإنما هي في ميزان الوسط ، والغيرة إذا كانت كذلك فهي محمودة ممدوحة ، وهي أن لا يتغافل الرجل عن مبادئ الأمور التي يخاف عاقبتها ، ولا يبالغ في إساءة الظن بزوجته ، ويراقب حركاتها وسكناتها ، أو يتجسس عليها فإن هذا ليس من مكارم الأخلاق . . . . والغيرة الممدوحة لا تكون إلا في أشراف الناس وأعلاهم همة ، لأن الله – تعالى– جعل الغيرة في الإنسان سببا لحفظ الإنسان ، قال الحكماء : كل أمة كانت الغيرة في رجالها كانت الصيانة في نسائها ، والغيرة في القلب مثل القوة في البدن تدفع المرض وتقاومه ، فإذا ذهبت القوة كان الهلاك ، وإذا ذهبت الغيرة كان الفساد ، رأى بعض العرب امرأته أكلت بعض تفاحة ورمت بباقيها إلى خادمها فضربها ، وأكثر الحيوانات غيرة حمار الوحش ، فإنه إذا رأى الولد ذكـــرا قطع آلته وأنثييه[٧٣٦] "

وفيما يخص خروج المرأة المسلمة محجبة فإن الأمير يبين رأي الدين والشرع في هذا الموضوع فيؤكد على أن الإسلام قد أباح للمرأة أن تخرج وتضرب في الأرض محتشمة محترمة لا يبدو من زينتها إلا ما أمر الله أن يظهر حتى ولو كانت ذات حسن وجمال ، ولذلك أجاز الإسلام للرجل أن يرى من المرأة– حتى ولو كانت أجنبية– الوجه واليدين إن كانت نيته سليمة وقصده شريفاً ويحرم عليه مادون ذلك .

ويضيف عبدالقادر أنه حين تغيرت الأحوال وابتعد الناس عن الصراط القويم وكثر الفساد وانحلت الأخلاق أصبح لزاما على كرام الناس أن يأمروا بناتهم ونساءهم وما ملكت أيمانهم أن يضربن على وجوههن ولا يبدين زينتهن اتقاء الفتنة وامتثالا لأوامر الشرع ودفعاً للشرور والآثام ويدلل الأمير على ذلك بأن خليفة رسول الله صلى الله عيه وسلم – عمر الفاروق– كان إذا رأى امرأة ملتحفة أمرها أن تكشف عن وجهها ، وإن ألفاها جميلة أمرها أن تغطيه وإن كانت غير ذلك أمرها أن تكشف عنه لأنه لاخوف عليها وعلى المجتمع من ذلك ، يقول الأمير : " إعلم أن المرأة يجوز لها في

الشرع أن تخرج لقضاء حوائجها بادية الوجه واليدين ولو كانت شابة جميلة، ويجوز للرجل أن يرى من المرأة الأجنبية الوجه واليدين إلا إذا قصد برؤيتها الشهوة واللذة فيحرم عليه ذلك، ولما كثر الفساد وقلت المروءة وكثرت الفاحشة صار أشراف الناس وأهل الديانة يأمرون نساءهم بتغطية وجوههن دائما، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى إمرأة متلحفة متغطية وجهها، يأمرها بكشف وجهها، فإن رآها جميلة، قال لها: غطي وجهك، وإن رآها قبيحة، قال لها اكشفى عن وجهك"[٧٣٧].

وبخصوص قول السائل "ولا يظهرن لأصدقاء أزواجهن ولا لأقاربهم ولا لأقاربهن" فان الأمير يوضح أن نساء العرب قديما كن لا يتحرجن من التحدث للرجال والجلوس إليهن، ولا يعتبر ذلك عار أو انتقاصاً من المرأة. فلما جاء الإسلام نهى عن ذلك لما فيه من مضرة وخطورة على حياة الأسرة والمجتمع، بل ان رسول الله (ص) ينهي عن اطالة النظر للمرأة لأنها توطئة للفساد، وهاهو سيدنا عيسى رسولنا ورسول السائل ينهي كذلك عما نهى عنه رسول الإسلام، ويعتبر النظرة خطوة أولى إلى الحريق والشرر، وهذا دليل على أن مثل هذا الأمر لم يأت به الاسلام فقط، وانما هو تكملة لما جاءت به الديانات الأخرى.

ويستطرد الأمير في إيراد بعض الأقوال المؤيدة لإجاباته من حكم وأمثال وعبر وأشعار زيادة في الايضاح وتأكيداً لما ذهب إليه في هذا الأمر.

يقول عبدالقادر: "اعلم أن العرب كانوا في الجاهلية يتحدث الرجال منهم مع النساء ويجتمعون معهن، حضر أزواجهن أو غابوا، وليس عندهم في ذلك عيب أو عار، إلى أن جاء الإسلام فمنع ذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاتتبع النظرة فإن مبدأ الزنا معاودة النظر"، وقال عيسى بن مريم "إياكم والنظر، فإنه يزرع في القلب الشهوة، وأول العشق النظر، وأول الحريق الشرر."، وقال حكيم لصياد رآه

يتكلم مع امرأة: ياصياد الوحوش !! احذر أن تصيدك هذه المرأة". وقال بعض الحكماء: النظر إلى المرأة سهم، والكلام سهم. ومعلوم أن النساء لحم !! يشتهيه كل رجل، وإذا دعا الرجل المرأة إلى نفسه، فالغالب عليها الإجابة، لاسيما إذا كان الرجل شاباً جميلاً صاحب مال، فخصهن الله بالحجاب وقطع الكلام معهن وأمر بمباعدة أجسادهن عن أجساد الرجال. وفي المثل ثلاثة لاتؤمن على ثلاثة: شاب على امرأة، وامرأة على سر، وفقير على مال، وقال بعض الشعراء:

لاتأمنن على النساء ولو أخاً

ما في الرجال على النساء أمين[٧٣٨]

ويتصدى الأمير لقول الجنرال السائل حين يتباهى بقوله "إن النساء عندنا يخرجن باديات الوجوه ويحضرن المحافل مع أزواجهن. "فيبين له أن محبة العرب للنساء لا تفوقها محبة واحترامهم لها يفوق كل وصف، وأن العربي اذا وقعت عيناه على ذات حسن وجمال، فإنها تأسر قلبه لأنه مطبوع على الحسن وكل ما هو جميل، فان كان صالحاً فاضلاً ظل يصارع نوازع النفس ويكبت جماحها إلى أن يغلبها، وان كان من ذوي النفوس الضعيفة وتمكن منه العشق نسي مصالحه وأهمل عمله، وظل قلبه ونفسه معلقين بها فيحصل له من جراء ذلك ضرر.

ومن هنا فإن الإسلام بشريعته القويمة السمحاء نهى أن تتزين المرأة لغير بعلها، وإن فعلت ذلك ومرت على قوم فرأوا جمالها أو اشتموا من ريحها طيباً – على حد قول الرسول عليه الصلاة والسلام – فهي زانية آثمة لأنها مدعاة للفتنة والفساد، ناهيك أن هذا الاختلاط له من المضار مادعا الشرع إلى تحريمه والنهي عنه مصداقا لقوله تبارك وتعالى "وقرن في بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى"، حفاظاً على كرامة المرأة، ودرءاً للفساد والمعاصي والفتن التي تنجز عن هذا الاختلاط وهي كثيرة بلاريب.

ولهذا بين عبدالقادر لسائله وهو يحاوره أن المسلمين أهل المروءة والدين كانوا يجتنبون مثل هذه الشبهات ويبعدون نساءهم وحرائرهم عن مجامع الرجال بل وينهونهن حتى عن مخالطة بنات جنسهن اللائي لايؤمن جانبهن، ويسوق الأمير لذلك قصصاً وأمثالاً وعبراً كاستحسان الرسول (ص) لجواب ابنته فاطمة حين سألها عليه السلام عن أي شيء فيه خير للمرأة فقالت: هو أن لايراها الرجال ولاتراهم، ولا ريب أن هذا الجواب قد أثلج قلب الرسول وسره فقبلها ما بين عينيها .

ويختم عبدالقادر هذه الرسالة موضحا للجنرال دوماس أن معشر الإفرنج الغربيين قد تعودوا على ربط علاقات بين الرجل والمرأة، ما أنزل الله بها من سلطان، ورضوا بالاختلاط نمطا لعيشهم، ولذلك خبت نيران الغيرة في قلوبهم، وماتت الحمية والنخوة في نفوسهم وذوى غصن المحبة الذي جعل أساسا للربط والتآلف بين الرجل والمرأة، ففقدت الحياة عندهم حلاوتها ووهجها، وأصبح الأوربي يعيش حياة روتينية، فلا جديد يبعث الدفء والحرارة فيها، ففقد بذلك الإحساس بمثل هذه الأمور التي وإن كانت ليست بذات قيمة عند الغربيين إلا أنها عماد حياة الانسان وعنوان آدميته وبفقدانها فقد أمثال هؤلاء نعمة من أجل النعم، يقول الأمير: " وقولكم النساء عندنا يخرجن باديات الوجوه، ويحضرن المحافل مع أزواجهن[٧٣٩] ." فاعلم أن محبة العرب للنساء شيء عظيم، وما أظن جنساً في الدنيا يحب النساء كمحبة العرب لهن، فلا يمكن أن يرى الرجل المرأة الجميلة ويبقى قلبه مستريحاً أبداً، فإذا كان يخاف الله وصاحب مروءة فإنه يبقى مع نفسه في قتال دائم، ويحصل له تعب عظيم، وإذا كان لا يخاف الله ولا مروءة له، فإنه يبقى مشغول الفكر. . . . فيبقى حيران ويضيع مصالحه كلها – وعندنا في الشرع إذا لبست المرأة الثياب الجميلة ومرت على الرجال لينظروا إليها فإنها: زانية آثمة، لأنها تشوش أفكار الرجال بسبب نظرهم إليها، وذلك يؤدي إلى حصول المعصية في الرجال، وكذلك المرأة إذا حضرت مجالس الرجال ربما يكون

زوجها قبيح المنظر أو شيخاً، وترى شاباً جميلاً فإن قلبها يتعلق به، وكذلك إذا حضرت مواضع الرقص والغناء مع الرجال فإن ذلك يفسدها ويحرك شهوتها. . . . قال بعض الحكماء: ليس بشيء أضر على النساء من الخروج، وليس شيء خيراً لهن من البيوت، والغالب أن المرأة إذا خرجت إلى مجامع الرجال والنساء، ومحافل الزهولاترجع سالمة القلب، وأقل مفسدة في ذلك أن ترى المرأة غيرها لابسة حليا وثيابا أحسن مما عندها، فتسخط على زوجها، وتكره عيشتها عنده، فلهذا كان المسلمون يجنبون نساءهم سماع الغناء من الرجال، وحضور اللعب والرقص والنظر إلى الرجال الأجانب وسماع حكاياتهم . . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) : " أي شيء خير للمرأة ؟ فقالت: هو أن لايراها الرجال ولا تراهم " فقبل ما بين عينيها استحساناً لكلامها، ولكن - أنتم معشر الافرنج - لما كنتم حين ينشأ الرجل منكم إلى أن يشيب يجتمع مع النساء ويجالسهم ليلاً ونهارا في البيوت والأسواق ومواضع اللعب وفي الطريق والنساء كذلك ضعفت محبة الرجال للنساء، وقلت الشهوة لأن الشهوة إنما تثور بقوة الإحساس واللمس، بالنظر والإحساس، إنما يقوى بالأمر الغريب الجديد، فأما الذي دام النظر مدة فإنه يضعف الحي عن تمام إدراكه فلا تثور به الشهوة فأنتم-مع الاجتماع الدائم -في راحة من العشق[٧٤٠] " .

أما الرسالة الثانية وهي رد من الأمير على الأسئلة المتعلقة بظاهرة الطلاق التي يراها الجنرال السائل ظاهرة متفشية عند المسلمين حين يذكر: " أن الطلاق عند المسلمين كثير وعندنا لا يكون أبدا ونحن نلومهم على ذلك لما فيه من الضرر على النساء وعلى الأولاد أيضا لكونهم يقعون في يد من لا يرحمهم كوالدتهم[٧٤١] " . فإنما نرى عبدالقادر يبين لسائله ما خفي عنه في هذا المجال مصححاً له سوء مااعتقده في المسلمين - بروح علمية بعيدة عن التعصب معززة بالبراهين والأدلة - دفاعا عن الإسلام وما

علق به من شوائب وسوء فهم تأكيداً على أن الاسلام لم يأت البتة بما يضر الناس فهو رحمة، دين يسر لا عسر صالح لكل عصر ومصر.

فالله سبحانه وتعالى لم يفرض ولم يوجب الطلاق لتعذيب عباده وظلمهم وزيادة معاناتهم لأنه أرحم بهم من أنفسهم ولكنه أحله وبشروط لحكمة يراها تعالى، فمن المتعارف عليه أن الزواج شركة حياة وشركة عمر وسفر طويل وما دام الإنسان مجبولاً على إخفاء عيوبه ومداراتها عن غيره حتى أقرب الناس إليه، فإن هذا الأمر سينكشف بالمعاشرة وحينها تبدأ المشاكل في الظهور على مسرح الحياة الزوجية، فإن وفق الزوجان في تقويمها وإصلاحها وتجاوزها فذاك هو الخير كل الخير، وان فشلا فقد أباح الله لهما الفراق بالمعروف والاحسان فلا ضرر ولا ضرار. وهكذا جعل الله الطلاق مخرجاً وشرف الرجل وأكرمه بأن جعله بيده نظير قيامه على شؤون الأسرة بلا تعسف مصداقاً لقوله تعالى " الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم " النساء آية ٣٣، ولكنه أباح وأذن للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها إذا استحالت معه الحياة.

فالطلاق كما يوضح الأمير لسائله لم يكن بدعاً في الإسلام بل إن الشرائع التي سبقته أشارت إليه فوردت في شأنه بعض النصوص في التوراة والانجيل استشهد بها عبدالقادر لتأكيد ما ذهب اليه، يقول الأمير: " الغالب خفاء بعض عيوب الزوجين من الرجل والمرأة إما في الخلقة أو الطبيعة فإذا ازدوج الرجل والمرأة وتعاشرا أو اطلعا على ما كان خفياً معيباً، ربما تظهر بعض العيوب لأحد الزوجين، فجعل الله الطلاق راحة للذي يحب الفراق منهما، فجعل الله الطلاق بيد الرجل لشرفه، وأذن الله للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها اذا اتصل بها من جهته ضرر.

والطلاق مباح في الأديان القديمة، ففي التوراة في الإصحاح الحادي والعشرين

في سفر الخروج : " اذا استقبح سيدها زواجها فليطلقها " وفي سفر الأحبار في الإصحاح : " إذا طلقت بنت الكاهن ولم يكن لها أولاد رجعت إلى بيت والدها تأكل من القدس"فعلم أن الطلاق ليس خاصا بالمسلمين[٧٤٢] . "

ثم ينبري عبدالقادر موضحا ما خفي من هذه القضية التي يجهلها السائل أو يتجاهلها موضحا أوجهها المختلفة من منافع ومضار، فمضارها على الرغم مما فيها من أمور سلبية مكروهة إلا أنها مباحة اذا لم تتعد آثارها حدود الشرع، ومادعا الله في قوله : " فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف " الطلاق آية ٢ ، ولذلك نرى الرسول عليه الصلاة والسلام يحذر المسلمين من الطلاق ويدعوهم إلى اجتنابه في أحاديث كثيرة، بل جعله أبغض الحلال إلى الله، وإن عرش الرحمان يهتز له، لأن الله يريد لعبيده حياة طيبة هانئة وعشرة دائمة وألفة متبادلة وذرية صالحة، ولن يتأتى ذلك إلا بالزواج السليم، وإنما أجاز الفراق والطلاق رحمة منه لعباده، فإذا لم يكن وفاق ففراق، فكثيرا ما يضطر الطبيب إذا أصيب أحد مرضاه بمرض خبيث إلى اللجوء إلى بتر العضو المصاب والتضحية به حفاظا على حياة مريضه على الرغم من فداحة الأمر وأثره على الإنسان، فهكذا إذن جعل الطلاق لراحة الإنسان وسعادته، وما كان الله ليعذب الناس بما شرعه، ولكن أكثرهم لا يعلمون حكمته إلا بعد أن يتبين لهم بالدلالة الغرض من هذا الأمر.

ويضيف عبدالقادر في ختام رده على أن الشرع قد أولى المتضرر من الطلاق من الاهتمام والرعاية ما يكفل له حقه سواء الزوجة أو الأولاد، فجعل نفقتهم على والدهم حتى يبلغ أولادهم أشدهم وأوكل حضانتهم للأم لأنها أرحم الناس بهم تخفيفا على الجميع، وما الله بظلام للعبيد ولكن أكثرهم لأنفسهم ظالمون، يقول الأمير: " وفي الطلاق منافع وأضرار، أما المنافع كما ذكرنا، وأما الأضرارفكما ذكرتم، وهو مباح اذا لم يحصل منه إيذاء للمرأة بالباطل، وعلى كل حال فانه لا يخلو من